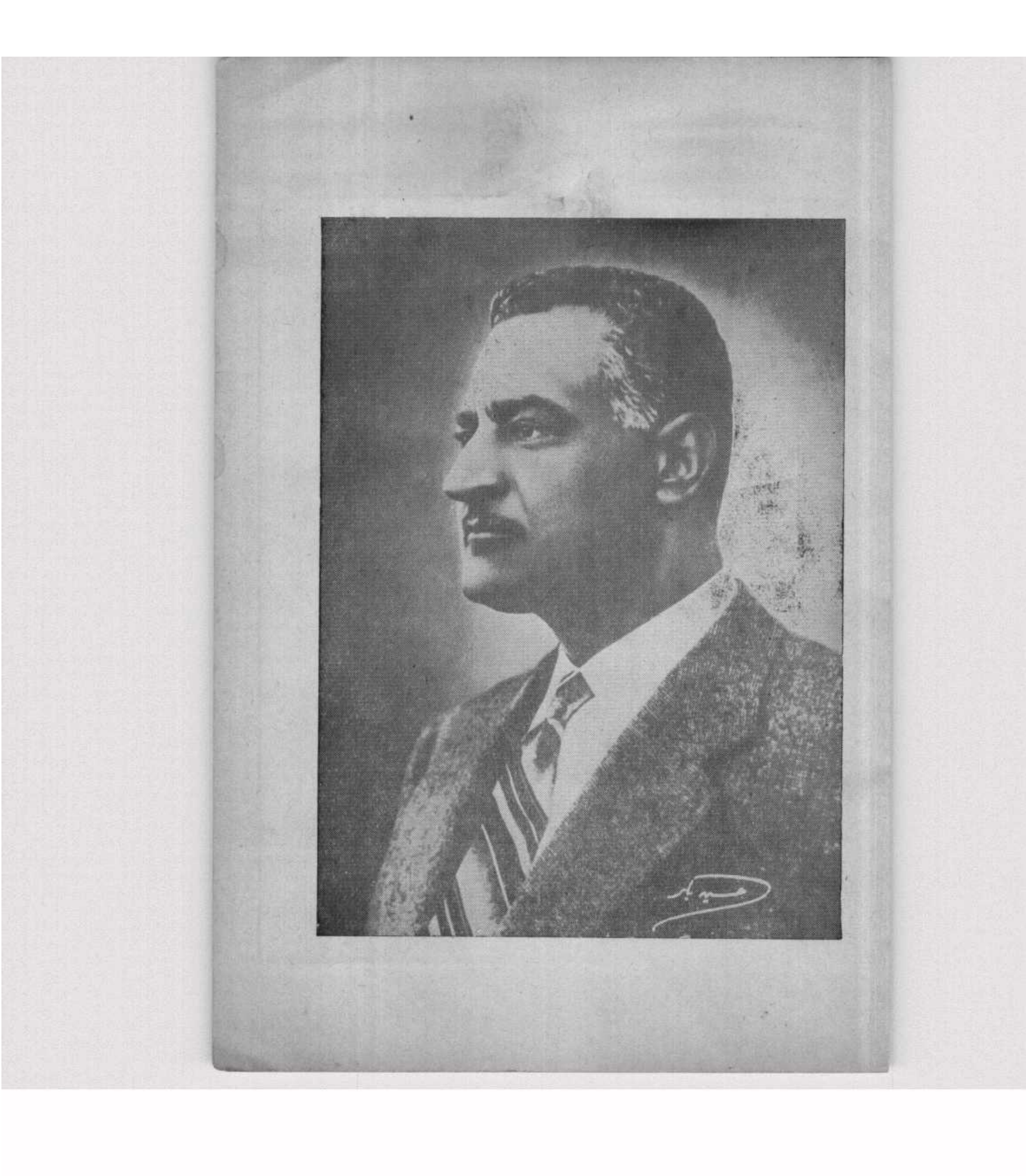
كتب إسلامية
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الاسلامية

في طريق المرأة العربية

للأستاذ أنور الجندي

« ٦٣ »
السنة السادسة
١٥ من جمادى الآخر ١٣٨٦ هـ
٣٠ من سبتمبر ١٩٦٦ م

يشرف على إصدارها :
محمد توفيق عويضة



بسم الله الرحمن الرحيم

وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فى جَنَّاتِ عدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

« صدق الله العظيم »

مـــدخــــــل

ما زالت « المرأة العربية » منـــذ فجر الاسلام والأمة العربية موضع التقدير والاعزاز ، وقد كان تاريخنا حافلا بصفحات فخــار لها ومجد ترسمها عشرات النماذج فى صورة العظمـــة والبطولة ، فقد اتيح لها ان تبرز فى مختلف المجالات : ملكة تسيطر على قلوب الرعية وتقود الجيوش وتمد فى آفاق الملك بالفتوح والحـــروب ، وزوجة أمينة كريمة تخلق جيلا من الأبطال والمجاهدين · ومحدثة تتصدر مجالس الأدب وندوات الشعر · وعالمة فى الأزهر ، وكاتبة وشاعرة ومعلمة ومربية على طول الطريق الطويل الى المجد ·

غير أن المرأة بوصفها جنسا لم تجد الطريق معبدا الى الحرية والكرامة والمجد · وانمـا كانت الفرص هى وحدها التى اتــاحت للنابغات فرصة التبريز والظهور ·

أما فيما عدا ذلك فقد كانت المرأة تسام الخسف وتكره عـــلى الزواج ولم تكن لها من الحقوق المدنية أو غير المدنية شيئا ، حتى جاءت الأديان تمنحها الكرامة والمساواة ، وتفتـــح أمامها الطريق الى ضياء الحرية ·

وكان الاسلام حفيا بأمر المرأة العربية ، فقد منحها من الحقوق ما لم تحصل عليه المرأة فى الغرب حتى اليوم ، فسبق كل النظــم والقوانين فى تقرير مساواة المرأة بالرجل · وفى ظله ظهرت زوجة

النبى التى تمده بالقوة ، والفارسة الباسلة ، والبليغة المتكلمة ، وقد أعزت الأديان الأم والزوجة ودعت الى مشاركتها فى مختلف الأعمال الاجتماعية والسياسية ، ومنحت المرأة الحق فى التعلم والتأديب وأثبتت لها حق الملك والتصرف ، والبيع والشراء والاجارة والهبة . واعطتها حق الدفاع عن نفسها بالتقاضى، واصبح لها أن تتصرف بحرية وهو ما لم تصل اليه المرأة الغربية ، الا منذ عهد قريب ، وأصبح للمرأة العربية حق الزواج والحرية الكاملة فى الاختيار .

وذكرها القرآن فى عديد من آياته وسوره محددا مكانها فى المجتمع منظما لحياتها وعلاقاتها بالزوج وبالناس ، وحذر من رميها بالتهمة بدون دليل .

ويرسم التاريخ للمرأة العربية صورة مونقة رائعة ، فقد أتيح لها من الحرية والحقوق ما فتح أمامها الطريق الى المجد ، فهى تشارك فى الحياة العامة وتروى الحديث ، وتعقد الندوات ، وتشهد الحروب.. وآيةهذه الحرية والكرامة ما يرويه ابن الجوزى من أن عمر وقف خطيبا فقال : « لا تزيدوا من مهور النساء على أربعمائة درهم ، فمن زاد ألقيت بالزيادة فى بيت المال ». فانبرت اليه امرأة فى صف النساء تقول : « ما ذلك لك » . فسألها : ولم . فأجابت : لأن الله تعالى قال : « وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » .

فقال عمر : أصابت امرأة وأخطأ عمر .. ثم رجع الى المنبر وقال : أيها الناس : كنت نهيتكم ان لاتزيدوا النساء فى صدقاتهن على أربعمائة درهم ، فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب وطابت نفسه فليفعل » .

وفى ظل هذا النظام بدأت المرأة العربية صفحة جديدة من الحياة الكريمة والانطلاق وسجلت صفحات باهرة من البطولة فى

مجالات الحرب والعلم وبناء أجيال الأمة ، وعرفت بالبلاغة والحكمة وكان لها فى مجال الشعر والكتـــابة مجال وأثر ، وظهرت منهن المحدثات الفقيهات النابغات ، وكانت لهن مجالس فى الشـــعر والأدب ٠

وقد سجلت الآثار الأدبية لها دواوين من الشعر واحاديث من الفكر وبطولات فى مجال الاجتماع والسياسة ٠

* * *

وفى الأندلس كان للمرأة حظ من النهضة ، فقد روى المؤرخون أن النساء كن منكبات فى خدورهن على طلب العلم وبينهن كثيرات امتزن فى عقولهن وفى معارفهن ٠٠ وكان للخليفة الحكم كاتبة اسمها « لبنة » عالمة فى النحو والشعر والحساب وعلوم أخرى ٠٠ ولهـا انشاء رقيق ٠٠ ويذكر التاريخ البـــاحثة فاطمة التى امتـــازت بالفصاحة وكانت تنقل الكتب النفيسة الى الخليفة ٠٠ وخديجـة التى كانت تضع أحسن الشعر وتنشده ، ومريم التى تولت تعليم بنات الأسر الكبرى فى أشبيلية الشعر والأدب ٠٠ وراضية الملقبـة بالنجمة السعيدة والتى اشتهرت بقصصها اللطيفة ٠

وقد أشار صاحب نفح الطيب الى أنه كان فى الأندلس من طبقة الحافظات ستون ألف حافظة لكل منهن حق تعليــق قنديل يضىء ليلا على باب دارها ، وأشار المؤرخون الى أن الأندلســـيات كن مطلقات الحرية ، يشهدن التمرينات والألعـــاب العسكرية ، وكن يحضرن الصلاة فى المســـاجد ، وقد شهد الحافظ جـــلال الدين السيوطى فى زمانه مجالس حافلة لرواية الحديث تصدرتها سيدات حافظات فقيهات ، وقد أخذ منهن ونسب اليهن فى كتابه « المنتقى من أحاديث النجاة » منهن :

أم الضياء بنت عبد الرازق ، وكمالية بنت محمد الانبـاسى ، وفاطمة بنت على بن اليسير ، وخديجة بنت أبى الحسن بن الملقن ٠

ثم دار الزمن دورته ، وأصاب الأمة العربية الضعف والتأخر فى مختلف فروع الحياة، فكان ما أصاب المرأة من التأخر والتخلف، حتى أشرق من جديد على هذه الأمة فجر الحرية فأخذت المرأة تشق طريقها الى الحياة والمجد ٠

وفى معركة طويلة منذ أوائل القرن تحاول المرأة العربية ان تستعيد حقها فى الحرية والتعليم وتسترد مكانتها فى مجال الحياة والاجتماع مشاركة الرجل فى بناء الحياة ، ولكن الاستعمار كان حفيا بأن يحول دون منح حقها الطبيعى ، أو الانحراف بهذا الحق على النحو الذى لا يرد للوطن العربى مكانته وحريته ٠

ومضت المرأة خطوات ، ثم كانت الثورة المصرية العربية الكبرى التى فتحت للمرأة الطريق الى العمل والتمثيل النيـــابى وكرسى الوزارة ، وبدأت بقايا الأغلال التى كبلتها وعاقت حركتها تسقط وكان عليها فى هذه المرحلة أن تستعرض الخطوات وتنظر الى الماضى ممثلا فى نماذج متعددة على طول الطريق الطويل فان ذلك من شأنه أن يمدها بالخبرة والتجربة ويعطيها الفهم العميق لرسالة المـــرأة وحركتهـــا ٠

* * *

خـــديـــجــة

المرأة التى حملت لواء الاسلام مع النبى

سيدة ثرية برزة ، من سادات قريش ، حفظ لها التاريخ أروع صورة فى حياة نبى .. هى خديجة بنت خويلد بن عبد العزى بن أسد ، الأم الأولى للمؤمنين والزوج الأولى للنبى – صلى الله عليه وسلم – وأم أولاده جميعا ما عدا ابراهيم ٠٠ هى المرأة المحبـــة الصادقة الوفاء التى أمدت الرسول بروح من العطف والحنان ٠٠ وعاونته بمالها وملأت حياته هناء ، وأعانته فى دعـــوته ٠٠ وهى القائلة ليلة الوحى : والله لن يخزيك الله أبدا ، انك لتحمل الكل ، وتعين الضعيف ٠٠

كانت شخصية محمد الأمين قد لفتت نظرها من وقت طويل، فقد كان معروفا بأمانته وخلقه ، وكانت لها تجارة تذهب وتعـود بين الشام ومكة ، فلما اختير لرعاية تجارتها حيث سافر بها الى الشام وعاد ببضاعة مزجاة وربح وفير ، ازداد فى نظرها مكانة ، ومضت تسأل خادمها ميسرة ، وكان رفيقه فى الطريق ، تسأل عنه لتعرف دقائق الرحلة الطويلة ، ومضى يحدثها أعجب حديث عن أعجب انسان ٠٠ كيف كانت الغمامة تظله ، والتجارة تزيد على يديه ٠٠

عندئذ أحست بأنه الرجـــل الذى كانت تنتظره ، وترجـوه لحياتها ، لعلها كانت قد سمعت ذلك الحبر الذى كان يقـــول

للنساء مرة : يانساء تيماء : انه سيكون فى بلدكن نبى يقال له محمد ، فأى امرأة أتيح لها أن تكون زوجة له فلتفعل ، وقد رجمته النساء - اذ ذاك - بالحجارة وأغلظن له القول ٠٠ الا خديجة فانها أطرقت وذهبت تفكر بعيدا ٠٠

ولم تلبث خديجة طويلا حتى أرسلت له نفيسة بنت منبه تدعوه الى الجمال والمال ، والشرف والكفاية فى ذات خديجة ٠٠ وذهبت نفيسة الى النبى :

قالت : ما يسعك أن تتزوج ٠
قال النبى : ما فى يدى شىء ٠
قالت : فان كفيت ودعيت الى المال والجمال ؟
قال النبى : من ؟
قالت : خديجة ٠
قال النبى : وكيف لى بذلك ؟
قالت : ان ذلك على ٠

وذهب محمد الى عمه أبى طالب يعرض عليه الأمر ، ثم قصد أبو طالب وحمزة وخطبا خديجة من عمها عمرو بن أسد ، وكان صداقها عشرين كيره ، وكانت فى الأربعين ٠٠

وكان النبى فى الخامسة والعشرين ، وكانت خديجة قد تزوجت قبل النبى من أبى هالة بن زرارة التميمى الذى مات عنها بعد أن ولدت له هندا وهالة ٠٠ ثم تزوجها عتيق بن عامد المخزومى فولدت له هندا ٠

وكانت تدعى فى الجاهلية « الطاهرة » لشدة عفافها وصيانتها ، كما عرفت بالعقل الرشيد والقلب المؤمن ٠

ولم تلبث بعد وفاة زوجها أن كانت أمل الكثيرين من عظماء قريش وأثريائها ، وقد رغبت عنهن جميعا ، فقد ظنت انما يخطبون

مالها أو جمالها ، ومع أنها ردت أشراف قريش فانها لم تر بأسا من أن تخطب لنفسها الأمين : واختارت بمحمد الخير كله ٠٠

وكان زواجا طيبا موفقا ٠٠ وكانت خـــديجة أول زوجات النبى ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت ٠

ولدت له من الذكور : القاسم وعبد الله والطاهر ، ومن الاناث رقيه وزينب وأم كلثوم وفاطمة ٠

وأفاضت خديجة الهناء على الأمين محمد ، وأحس الى جوارها بالحب والرفق والحنان ، وكان يتركها ذاهبا الى غار حراء متحنثا الليالى ذوات العدد ، حتى بلغ الأربعين وجاء ذلك اليوم المشهود ، عندما فاجأه جبريل وألقى اليه مقاليد الرسالة ٠٠

فنزل محمد يرجف من أعلى الجبل قاصدا خديجة يقص عليها القصة ويقول : « زملونى ٠٠ زملونى » ٠٠

وسارعت خديجة تدثره وتزمله وتتركه وقد ذهب فى النـوم ، حيث لقيت قريبها « ورقة بن نوفل » تسر اليه حديث النبى ٠

فيقول ورقة : والله لقد جاءه الناموس الاكبر ، الذى كان يأتى موسى من قبل ، والله انه لنبى هـــذه الأمة ، ولان أدركت يومه لأنصرنه نصرا مؤزرا ، وانه والله ليخرجه قومه ويحاربوه ٠

واستيقظ محمد من نومه ، ووجدها مشرقة النفس ، مبتسمة راضية وهى تقول له :

« أبشر يا محمد واثبت ، فوالذى نفسى بيده انى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ولن يخزيك الله أبدا ، انك لتصنع الخير وتصدق الحديث ، وتصل الرحم وتعين على نوائب الدهر ٠

وطابت نفس محمد ٠٠ ومضت الحيـــاة طيبة ، الوحى ينزل والدعوة تتسع والرسول يواجه متاعب الدعوة بقلب طيب ، كلما

ضاق بأمر خصوم الدعوة وجد عنده فى البيت روحا مليئة بالحنو والايمـــــان ٠

ولكن خديجة لم تلبث أن قضت مخلفة للنبى حزنا عميقا حتى وصف عام وفاتها بعام الحزن ٠٠ وبكى النبى وتأثر ، هذه الصداقة الطويلة التى عاشت معه أيام المحنة قد انطوت من عالم الدنيـا ، ولكنها ظلت حية فى نفسه لا تذهب أبدا ٠

لقد كان النبى يذكرها دائما ويسأل عن أهلهـــا ٠٠ قالت عائشة : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اذا ذبح الشــاة يقول : أرسلوا الى أصدقاء خديجة ٠٠ قالت فذكرت له يوما فقال انى لأحب حبيبها ٠

لقد عاشت خديجة مع النبى سنوات الشدة فى الدعوة وكانت له ظهيرا بمالها وشخصيتها ٠٠ قال النبى حين سئل عنها : آمنت بى اذ كفر الناس ، وصدقتنى اذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها اذ حرمنى الناس ٠٠

والحق أنها كانت معدة اعدادا طبيعيا لتكون زوجة رسول فى أوائل دعوة شاقة قاسية واجه النبى فيها من المتاعب ما لا يحتمله الا من كان مؤيدا لقوة السماء ٠

لقد عرفت خديجة حقيقة النبى ، وكشفت أعمـــاق شخصيته قبل أن توجه اليه الرسالة ، وأحبته بالعقل والقلب معا ، وكانت فترة الخمسة عشر عاما السابقة لدعوته تمهيدا حقيقيا لمــــا جاء بعدها من جهد ومشقة ٠٠

ومن أجل هذا حباها الله وأكرمها ٠٠ فقد روى ابن هشـــام أن جبريل نزل على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقـال : أقرىء خديجة السلام من ربها فقـــال النبى : يا خديجة هـــذا جبريل يقرئك السلام من ربك ٠٠ فقالت خديجة : لله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام ٠٠

وهكذا ثبت دور خديجة الواضح فى هذه الدعوة ومكانها الحقيقى من الرسالة واذا كانت خديجة قد وهبت كل مالها للدعوة الاسلامية فانها كانت بنفسها وروحها أشد عطاء ، ممثلا فى الوجه الباسم الذى يسرد عن النبى آلامه وأحزانه اذا ما عاد الى بيته بعد طول المشقة ٠

وكان النبى صادقا وهو يقول لعائشة : « والله ما أبدلنى الله خيرا منها ٠٠ انها آمنت بى حين كفر بى الناس » ٠

* * *

عـــائشـــــة

زوج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبنت الصـــــديق ، درة باهرة فى تاريخ المرأة العربية المسلمة ، عاشت أول حياتها فى كنف الرجل الذى أيد النبى وصدق به ، الصديقة بنت الصديق ، ثانى اثنين اذ هما فى الغـــار ، رأت فى مطالع حياتها ، تلك الصــورة الرائعة ، صورة النبى وهو يرد بينهم ويتحدث الى صاحبـــه ، وانتقلت من هذا الجو المطعم بريح النبوة الى جو النبوة نفســه ، فعاشت فى مجال الوحى وتحت ظلال الابوة الروحية الكبرى حيث كان بيتها لا يفصله عن المسجد الا حائط صغير ، وشهـدت مطالع الجيوش الى الغزوات ، وزيارات الوفود وأحاديث النبى ، وطالعت صورة ضخمة من الجهاد والنضال فى سبيل اقامة الدولة الاسلامية. وعاشت حياة جافة ، كانوا يرون الهلال فالهلال فالهـــلال ، ثلاثة أهلة فى شهرين لا يوقد فى بيت رسول الله نار . وانما طعامهـــم الأسودين : التمر والماء ..

زفت الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سـن باكرة ، فتاة لم تتفتح بعد أنوثتها ، جميلة الوجه ذكية الفـــؤاد مشرقة الجبين ، حالمة ، ممشوقة القد ، خفيفة اللحم .. مرحـــة . وقد أحبها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان لها عليه دالة وجرأة ، وفى خلال أحد عشر عاما أمضتها فى بيت الرسول أخذت تفهـــم الحياة وتستوعب الثقافة وتحفظ القرآن وتتفقه فى الدين ، لم يكن

يفوتها مجلس من مجالس النبى التى اختص بها المؤمنات حتى وعت أحكام الدين وبلغت فيه مبلغا ، حتى قيل أنها الحميراء الفقيهة التى عندها من العلم ما عندها ٠ وقد منحها النبى حرية الفكر والرأى والكلمة ، وأتاح لها جوا من الحياة ذات الطابع النبوى فصاحبته فى غزواته ، وكانت الأثيرة لديه ، وربمـــا سابقها فى خلال رحـــلاته فتسبقه أحيانا أو يسبقها ، وكان يأذن لفتيان الحبشة أن يلعبوا بحرابهم بين يديه ويدعوها فيوطأ لها عاتقـــه كى تشهد اللعب وترقب براعة الفتيان ٠

عاشت عائشة فى هذا الجو الروحى فى كنف « نبى » يأتيـــه الوحى من السماء ، حيث شهدت مشرق أمة ومولد دولة ، يومه كله بين أصحابه يوجه ويعد ويحكم ، فاذا جن الليل عكف على مصلاه ، فصلى ما شاء الله له أن يصلى حتى يطلع الفجر وحتى تتورم قدماه ٠

وكانت عائشة تحس أنها بين نساء النبى أعظم مكانة ، فهى بنت الصديق ، والبكر الجميلة الصغيرة ، وكانت على الجرأة فى أن تقول ذلك للنبى السمح ، فيقبله منها باسما : أنا لست كأحد نسائك يا سول الله ، كل امرأة منهن كانت عند رجل سواى ٠٠

وهى الانثى بكل ما فيها من طبع الانثى ، تغـــار يوم ولدت مارية « ابراهيم » وتغار من ذكرى خديجة اذ كان الرسول لا يكف عن ذكرها ، وتحاول أن تصفها بالعجوز التى أبدل الله النبى خيرا منها ٠٠ فيقول النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى ســـماحته : لا والله ما بدلنى الله خيرا منها : آمنت بى اذ كذبنى النـــاس ، وواستنى بمالها اذ حرمنى النـــاس ،ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من الناس ٠٠

٠٠ وكان النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد عاش مع زوجـه العظيمة « خديجة » حتى توفيت بعد حياة امتدت بينهمـا خمس وعشرين سنة ، فلما ماتت والنبى فى سن الخمسين ، قال عليـه

الصلاة والسلام لعائشة بعد أن تزوجها : أريتك فى المنام مرتين ، أرى أنك فى سرقة من حرير ويقال : هذه امرأتك ، فأكشف عنها فانما هى أنت فأقول : ان يك هذا من عند الله يمضه ٠

وكانت السيدة خولة بنت حكيم ــ زوجة عثمان بن مظعون ــ قد رأت من أمر النبى وحزنه بعد وفاة خديجة ما دفعها الى أن تحدثه فى الأمر : أى رسول الله ، ألا تتزوج ؟ فسألها : من ؟ قالت: ان شئت بكرا ، وان شئت ثيبا ، فسألها عن البكر ، فذكرت عائشة بنت أحب خلق الله اليك ٠٠ وسألها عن الثيب فذكرت سودة بنت زمعة ٠

وذهبت خولة الى بيت أبى بكر ، وقابلت أم رومان وهى أم عائشة وقالت :

ما أدخل الله عليكم من الخير والبركة ، قالت أم رومان وما ذاك: قالت : أرسلنى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أخطب عليه عائشة ، فلما عرض الأمر على أبى بكر استقبله فى دهشة ٠٠ وقال : هل تجوز عائشة للرسول وهى بنت أخيه ٠٠ وابتسم النبى ابتسامته الحلوة وقال لخولة :

ــ ان « الصديق » هو أخى فى الدين والاسلام لا فى الرحم وابنته حلال لى ، وقدم أربعمائة درهم صداقا لها ٠٠ وتمت الخطبة فى شوال سنة عشر من الدعوة قبل الهجرة بثلاث سنوات٠

قالت عائشة : وكنت يومئذ جارية حديثة السن لا أحفظ شيئا من القرآن وقالت جاريتها « بريرة » انها كانت صغيرة ، أعجن العجين وآمرها أن تحفظه فتنام فتأتى الشاة فتأكله ٠٠

ووصفت عائشة حياتها ومكانها فى بيت النبى ٠٠ فضلت على نساء النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعشر :

لم يتزوج بكرا غيرى ، ولا امرأة أبواها مهاجران غيرى ، وأنزل الله براءتى من السماء ٠ وجاء جبريل بصورتى من السماء

فى حريرة ، وكنت أغتسل أنا وهو فى اناء واحد ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيرى ، وكان يصلى وأنا معترضة بين يديه دون غيرى ، وكان ينزل عليه الوحى وهو معى ولم ينزل وهو مع غيرى ، وقبض بين سحرى ونحرى ، وفى الليلة التى كان يدور على فيها ، ودفن فى بيتى .

وكانت عائشة تعرف جمالها ومكانها ، تقول : « ان الله وسمنى بميسم جمال فما كنت لاستره ووالله مافى وصمة يقدران يذكرنى بها أحد » ، نشأت فى بيئة رخية ، فأبوها يعمل بالتجارة ويعرف الأنساب ، وأمها « أم رومان » امرأة ذكية أسلمت وهاجرت ووصفها النبى بقوله « من سره أن ينظر الى امرأة من الحور العين فينظر الى أم رومان » . وتعلمت عائشة الكتابة والقراءة ولم يكن يتعلمها الا القليل ووسمتها البيئة والوراثة بطابع العزة والكرامة ، جهيرة الصوت ، تعنى بشعرها وتقول : اذا كان لأحدكم شعر فليكرمه ، وكانت جريئة نشيطة فيها حدة طبع وبريق ذكاء ، وقد طبعها أبو بكر بطابعه فى الكرم والنجدة وصدق المقال والثقة حتى انها عندما وقع حادث الافك وهز المدينة ، واجهته بثقة وتحد ، وقالت انها بريئة وأن السماء ستبرئها وصدقت ، وكان النبى كلما سمعها تجيب على من يساجلها يقول : انها ابنة أبى بكر .

وقد عرفت بسرعة الغضب وسرعة الصفح ، فلم تلبث أن صفحت عن من تولوا كبر حادث الافك ، وعرفت بالنجدة والسخاء فكانت تشترى الجوارى وتعتقهن ، وزاد فى سماحة طبعها ونبل خلقها أنها انتقلت من بيت أبى بكر الى بيت النبى وصافحت خلق النبى خمس عشرة سنة منذ سن الخامسة عشر من عمرها ، وكان خلقه القرآن ، ولم يكن يسرد كسردكم هذا على حد قولها فى وصف شمائله .. وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - كريما

كالسيل وقد تصدقت عائشة من بعده بسبعين ألفا عـلى بعض الأقـوال ..

وفي مجال الفكر والشـعر والفقه كانت آية في الاستيعاب والتلقي والفهم ، وكانت تروي شـعر عروة بن الزبير وهو ابن أختها ، ولما توفي أبوها قالت :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وكانت تعجب بشعر « زهير » وفي مجال الحديث النبـوي روت أكثر من ألفي حديث ، وكان عندها من كل علم طرفا ، حتى قال أبو موسى الأشعري قوله : « ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة الا وجدنا عندها علما فيه » . وكانت أفقه الناس على رأي عطاء بن أبي رباح وكان مشيخة أصحاب رسول الله – صـلى الله عليه وسلم – يسألونها في الفـرائض في رواية مسروق الهمذاني ، وقال عروة : ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشـعر .. من عائشـة ..

وليس ذلك غريبا اذ كان أبوها راوية الأنساب وأخبار العرب وقد كانت لغتها سليمة نقية ، فهي جماع هذا المحصول الضـخم والحصاد الهائل من بلاغة القرآن وبلاغة النبوة ، ومن هذا نموذج قولهـا :

(تزوجني رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج فوعكت فتمزق شعري فأتتني أمي أم رومان ، واني لفي أرجـوحة ومعي صواحب لي وصرخت بي فأتيتها لا أدري ماذا تريد بي ، فأخذتني بيدي حتى أوقفتني على باب الدار ، واني لأنهـج حتى سكن بعض نفسي ثم أخـذت شيئا من ماء فمسـحت به وجهي ورأسي ثم أدخلتني الدار فاذا نسوة من الأنصار في البيت فقلن على الخير والبـركة وعلى خير

طائر ، فأسلمتنى اليهن يصلحن من شأنى ، فلم يرعنى الا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ضحى : فاسلمتنى اليه) .

وقد كان ذكاء عائشة وفطنتها من عوامل فهمها للرسول ، والتصاقها به والوصول الى مكانها فى نفسه الشريفة ، كانت محبة له ومعجبة به ، معجبة بأسلوبه وحديثه « حديثا لو عده العاد لأحصاه » تغار عليه وتلبس متجملة له ، وتقول لاحدى النساء : « اذا كان لك زوج فاستطعت أن تنزعى مقلتيك فتصنعيهما أحسن مما هما فافعلى » .

وكان النبى يحبها ويستريح اليها ويتحدث معها فى مختلف الشئون ، وقد كونها — عليه الصلاة والسلام — بوسائله النبوية فى التدريب وأسلوبه النفسى فى الاعداد حتى بلغت مكانتها فى الفهم والتذوق لأدق مسائل الدين والدعوة والسياسة ، وكانت عونا له على حل اشكالات النساء حين يسألن النبى عن شئون الطهارة والحيض والحاجات المختلفة ..

* * *

حادثان خطيران فى حياة عائشة :

أولهما وهى فى سن الثامنة عشرة ، وهو حادث الافك الذى وقع بعد غزوة بنى المصطلق ، حيث خرجت عائشة من خيمة النبى لبعض شأنها ، وفى أثناء غيبتها سرى الركب على عجل ، وجر أحدهم البعير الذى يحمل هودجها متهيبا من مناداتها قبل الرحيل ، كانوا يحسبون أنها فى هودجها لخفتها ونحافتها ، فلما عادت من أمرها وجدت هودجها قد حمل ومضى به فوقفت مذهولة تنظر الى الموكب الذاهب بقلب واجف ونفس مضطربة ، وكان قد تخلف عن الركب صفوان بن المعطل ليجمع بقايا الجيش بعد قيامه ، فلما تأهب للحاق بمن سبقوه رأى على البعد شبحا ما لبث أن

تبينه فاذا هو « عائشة » فجعل يسترجع ويردد « انا لله وانا اليه راجعون » ، وقرب اليها بعيره ودعاها للركوب فركبت ·· فلما رآها « عبد الله بن أبى سلول » عدو الاسلام والنبى ، منفصلة عن الركب ، قال كلمة الافك التى ذاعت وانتشرت وأحدثت ضجة كبرى ، وقد أرسل الله براءة عائشة من السماء فاستراح قلب النبى والمؤمنين ·

أما الحادث الخطير الثانى فى حياتها فهو اقتحامها ميدان السياسة بعد وفاة النبى ــ وقد عاشت بعده أربعين عاما ــ وكانت عائشة قد أخذت جانب مناصرة عثمان بعد مقتله ، وألقت خطبا حماسية ، وكانت خطيبة بارعة ، وانضم اليها بنو أمية وطلحة والزبير ، وخرجت فى عشرين ألفا تشارك فى موقعة الجمل ضد الامام « على » الذى ولى الخلافة اذ ذاك · وقد انتصر على فى هذه المعركة وأرسل عائشة معززة مكرمة الى مكة ·

وفيما عدا هذا الموقف عاشت عائشة حياتها لذكرى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وحديثه ، كانت خلالها مرجعا للمسلمين فى حفظ آى القرآن والسنن والأحاديث وكان بيتها مصدرا من من مصادر الهداية ، يدعونها « يا أمة » تلقن الأحاديث وتجيب السائلين وتصلى ، وظلت عائشة خلال العهود المختلفة معززة مكرمة ، وقد ندمت على موقفها من يوم الجمل ، وعاشت بقية حياتها تقول : ليتنى مت قبل يوم الجمل ·· وكانت تقول : ليت كان لى من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بنون عشرة وثكلتهم ولم يكن يوم الجمل ، ومحى الزمن أثر الحادث وعاشت عائشة بذكريات كريمة معطرة ·

لقد كانت عائشة « درة » فى حياة النبوة ، وصورة مشرقة لتكريم الاسلام للمرأة عاشت حياة خصبة ، وشاركت فى حياة النبى ومسئولياته وحفظت عنه وروت ، وشاركت فى الحياة

العامة بالرأى والحركة ، وكانت الى ذلك « الانثى » بكل ما فيها من طبائع وشمائل ، وكانت مثلا لقواعد الاسلام فى معاملة المرأة « لا تزوج الايم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن ، ما أكرم النساء الا كريم ولا أهانها الا لئيم ، وعاشروهن بالمعروف ، وما زال جبريل يوصينى بالنساء ، أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران « **يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها** » .. « **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة** » .

كانت عائشة مرآة لصورة المرأة فى الاسلام ، بحياتها وثقافتها وروايتها .

عاشت سبعين عاما وتوفيت عام ٥٧ هجرية وحفظ لها التاريخ روايتها لحديث رسول الله وصورة حياته ، وقصة حب النبى الكريم ..

* * *

ثلاثة وجوه للمرأة العربية

ذات النطاقين

الخنساء

الزباء

تبدو ملامح المرأة العربية فى ثلاثة وجوه على امتداد الزمن منذ كانت المرأة تمثل البطولة والذوق والتضحية .

تمتد الصورة من قبل الاسلام حيث الصحراء تعصف بالمعارك والمطامع ، ثم تقف لحظة بين الوثنية والاسلام حيث تتغير مفاهيم الفكر وأحاسيس النفس ، ثم تمضى الصورة الى مداها حيث تبرز القيم الانسانية العالية بعد الاسلام ، والمرأة فى المراحل الثلاث تملأ الحياة بمكانها الواضح المرموق .

- ١ -

الزباء العربية ذات الذكاء والادراك والمهارة ، بنت عمرو بن حيان ، البارعة الجمال ، الطويلة القامة ، القوية البنية ، التى جمعت بين الأنوثة والشجاعة الجريئة التى لا تعرف الخوف ولا تتردد أمام الصعاب .. الفارسة التى لا يشق لها غبار .. عظيمة الجلد ، الطموحة الى العلا ، التى تحسن قيادة الجيوش والقتال بالسيف والرمح ..

لم ترث الزباء العرش عن آبائها بل رفعها اليه زوجها الذى كان يتزعم القبائل الضاربة فى صحراء تدمر ، انه أذينة بن السميدع ، فلما مات ارتقت الى مكانه وأمضت خمس سنوات ملكة ، لم تتوقف يوما عن الحرب والفتح ، وأتيح لها أن تنتزع من الرومان والفرس أغلب المدن وشنت الغارة على مصر .

أبرز احداث حياتها انتقامها من جذيمة بن الابرص قاتل ابيها فقد أرسلت اليه تدعوه لاعتلاء عرش المملكة ولضم ملكه الى ملكها فأغراه النفوذ وحب السيطرة على قبول عرضها ، فاعترض من رجاله قصير بن سعد اللخمى الذى كشف عن المؤامرة ولكن جذيمة رفض رأيه ورحل الى الزباء فى موكب حافل فاستقبلته واستضافته ثم قضت عليه ، وكانت تتخذ نفقا من مكانها فى القصر الى حصن فى داخل المدينة خشية انتقام خليفة جذيمة : عمرو بن عدى .

وذهب قصير اللخمى اليها بعد ان جدع انفه ، وشكا لها عدى فوثقت به ، وظل يتردد بينها وبين عدى يحمل التحف والطرائف ، فاعجبت به فلما وثقت منه جمع أصحاب عدى فى موكب ودخل المدينة يقود الجمال ووقفت الزباء فى شرفتها تنظر الى الابل ، وهو يصف ما جلبه من طرائف وتحف نادرة .

وكانت الابل من فرط ما حملت تكاد تنوء به على حد قول الشاعر :

ما للجمال مشيها وئيدا
أجندلا يحملن أم حديدا

ودخلت الابل المدينة ، وأوقف قصير عمرا على باب نفق الزباء ، وخرج الرجال ينهبون ويقتلون ، فلما أوشكت الزباء على الهرب كان عمرو قد وقف لها بباب النفق فامتصت خاتمها المسموم وقالت كلمتها المعروفة : بيدى لا بيد عمرو .

كان اسمها فى مطلع الصبا « تماضر » لبياض لونها ، وكانت العرب تطلق هذا الاسم على المرأة ذات البشرة البيضاء ، ثم غلب عليها اسم الخنساء مؤنث : أخنس .

تزوجت من رواحة السلمى ، وأنجبت أربع أبنـــاء ذكور ، نشأوا جميعا شعراء شجعانا خاضوا غمار الحرب وقد غمرتهـــم أمهم محبتها وأسبغت عليهم من عطفها .

وكانت تحب أخاها « معاوية » أشد الحب ، فلما مات أصابها ذعر شديد ، واضطرب كيانها أعنف اضطراب ، وانقلب شعرها الى مرثيات مبكية موجعة ، فلمـــا مات أخوها صخر بعد معاوية اهتزت نفسها وتقوس ظهرها وانطفأ نور جمالها .

يذكرنى طلوع الشمس صخرا
وأذكره لـــكل غروب شمس
ولولا كثرة البـــاكين حـــولى
عـــلى مـــوتاهم لقتلت نفسى
وما يكون مثـــل أخى ولكن
أعـــزى النفس عنه بالتأسى

غير أن الخنساء لم تلبث أن تحولت بعد الاسلام شيئا آخر فقد نشأ أبناؤها الأربعة شجعانا عرفوا بالفروسية والقـــوة والبطولة ، فلما اندلعت الحرب بين العرب والفرس شجعتهم على الاشتراك فى موقعة القادسية ودفعتهم فى حماسة ليموتوا فى سبيل الله شهداء.

فلما انتهت المعركة ، وأخذت القوات تعود قافلة الى الوطن ، خرجت الى الطريق ، وكان قد ارتفع بها السن وكف البصر، تسأل العائدين عن أبنائها . فلما علمت أن ابناءها « الأربعـــة » قـــد استشهدوا جميعا ، سألت كيف قتلوا ، فلما علمت أنهم قتلوا وهم

يهـــاجمون العدو مندفعين بصدورهم ، ملأتهـا الفرحة وأحست بالفخر وقالت كلمتها الخالدة :

« الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو أن يجمعنى الله بهم فى مستقر رحمته » .

- ٣ -

تلك بنت أبى بكر الصديق ، وأخت عائشة ، وزوجة الزبير بن العوام ، الفتاة التى احتملت من المشاق فى سبيل رعاية رسول الله بعد هجرته ما لم تحتمله فتاة ، كانت تعد الطعام لهما ـ النبى وأبيها ـ كل يوم وتحمله اليهما ، وتحمل قربة الماء وتتقـدم كل مساء من مكة ، فتمضى فى هذه الصحراء الموحشة حتى تصـــعد الجبل فتزودهما به ، وتنقل اليهما الأخبار التى تكون قد جمعتها فى مطالع النهار ، وذات يوم صـنعت طعاما للنبى فلما لم تجــد ما تربطه به شقت نطاقها وشدت به الطعام فقال الرسول : انها ذات النطاقين فى الجنة .

وفى صبيحة يوم الهجرة اقتحم بيت أبى بكر جمع غفير من خصوم النبى يسألون عنه ، ووقفت هى فى عزم واصرار تجيب « لا أدرى » ومد عمر بن هشام يده اليها فى قسوة ولطمها لطمة أطارت قرطها ، ومع ذلك فلم تهتز ، وأصرت على أنها لا تعرف شيئا .

ودخل أبو قحافة (جدها) وقد أصابه العمى فقـــال : كيف حالكم يا أسماء ؟

فقالت خير حال . فقال : والله انى لأرى أبا بكر قد فجعكم بماله كما فجعكم بنفسه .

فقالت فى دهشة وانكار : كلا يا أبت انه لم يفجعنـا ، انه ترك لنا مالا كثيرا ، وأسرعت الى بعض الحجارة فوضعتها فى كوة كان

ابو بكر يضع فيها ماله، والقت على الحجارة ثوبا وأخذت يد جدها الشيخ قائلة : ضع يدك على هذا : فاستراح الرجل ومضى ٠

قالت أسماء : والله ما ترك لنا أبو بكر شيئا ولكنى أردت أن أسكن قلب الشيخ ، ولم تلبث أسماء بعد قليل أن شاركت فى الحياة الاجتماعية ، فكانت تمرض الجرحى فى الحروب ، وشهدت مع زوجها الزبير بن العـوام غزوة اليرموك ، وولدت له خمس أبنـــاء ٠

ومن أعظم مواقفها موقفها من ابنها عبد الله حين دعا الى نفســه بالخلافة فى مكة وقد اضطرب أمره فدخل اليها يقول :

ــ يا أماه قد خذلنى الناس ، حتى ولدى وأهلى ، فلم يبق معى الا اليسير ممن ليس عنـــده أكثر من صبر ساعة ، والقـــوم يعطوننى ما أردت من الدنيا ، فما رأيك أنت ؟

قالت اسماء : والله يا بنى أنت أعلم بنفسك ، ان كنت تعلم انك على حق واليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية وان كنت انما الدنيا أردت فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ، وأهلكت من قتل معك وان قلت : كنت على حق فلما وهن أصحابك ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ، كم خلودك فى الدنيا ، القتـــل أحسن ، والله لضربة بالسيف فى عز ، أحب الى من ضربة بالسوط فى ذل ٠

قال عبد الله : انى أخاف ان قتلونى أن يمثلوا بى ٠

قالت أسماء : يابنى ان الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها ٠

فدنا منها وقبل رأسها وقال : هذا والله رأيى ٠

فلما قتلوه صلبوه وعلقوه أياما ، فخرجت وكانت قد ذهب بصرها ، فمضت الى الحجاج حاكم المدينة وقالت فى جرأة : أما آن لهذا الفارس أن يترجل ٠٠

الفارسة الباسلة

قصة المرأة العربية فى المعارك الحربية

ليست هى قصة امرأة واحدة بل هى كثيرات ، الفارسات الباسلات فى مجال الحرب والوغى والقتال ، لم يكن فقط ساقيات الماء وراء الركب ، أو مضمدات الجراح خلف الصفوف ، وانما كن المقاتلات اللائى بهرن القادة ، وأخذن المبادأة ، وكشفن عن المعدن الأصيل والقدرة والبطولة ؛ لقد سجل التاريخ بالفخر اسماء : نسيبة أم حبيب الخزرجية خولة بنت الازور ، عائشة المخزومية، الرميصاء أم ملحان ، وكثيرات ... لكل قصة كفاح ، وصورة بطولة بهرت الأنفاس وهزت القلوب . فقد برزت المرأة العربية بعد الاسلام الى مجال الحرب وحملت السلاح فارسة مقاتلة .

وفى غزوة بدر ، أولى الغزوات ، كان هناك ثلاثمائة رجل وامرأتان ، وفى غزوة « أحد » برزت المرأة المسلمة . كانت نسيبة أم حبيب الخزرجية ، من أبرزهن بدأ عملها قاصرا فى أول الأمر على السقاية والضمادة ، ولكنها ما كادت ترى كفة المسلمين تضعف وتغلب كفة قريش ، ويحاصر النبى حتى ألقت كل ذلك ، وحملت السيف ومضت تدافع عن النبى ، وترد عنه الأعداء ؛ لا تتوقف ولا تهن ، تتلقى الطعنات دون أن تتزحزح ، وكسر سيفها مرات فكانت تستبدله ، وتمكن المشركون منها فأثخنوها بالجراح ،

ولكنها وقفت سدا منيعا دونهم ودون رسول الله ولم تحتمـــل من كثرة الطعن ، لكنها لم تسقط على الأرض تنزف الا بعد أن فرت قريش وولت الأدبار ، وقد سارع المسلمون اليها يضمدون جراحها ... ولم تطل غيبوبة المرأة المؤمنة ، فما أن فتحت عينيهـــا حتى ســـألت عن النبى ، فطمأنها سـعد بن أبى وقاص : فهتفت فداه أبى وأمى .

سألت عن النبى ولم تسأل عن زوجها وولديها وكانوا جميعـا يقاتلون ، ومضت نسيبة تخوض المعركة حتى النهاية ، قـــدمت ابنها حبيب الذى قصد الى مسيلمة فغدر به ، وقطع أوصاله وحرقه بالنار ، واحتمل حبيب التضحية فى ايمان وصبر ومات شهيدا ولم تبك عليه حبيبة ولكنها شاركت فى قتال مسيلمة بنفسها ، فكانت فى ركب خالد بن الوليد اليه .

وحارب المسلمون عدوا مجهزا ، وكادوا ينهزمون لولا أولئك النفر من الفدائيين البواسل ؛ وتقدمت نسيبة الصفوف زاحفة ، ولها صيحة مدوية تهز القلوب ، وتابعها المسلمون ، وكادت تفتك بمسيلمة لولا أنه عاجلها بضربة قطعت يدها ، فلم تتوقف عن الهجوم ، حتى مكنت لولدها (عبد الله) من الثأر لأخيه فقتـل مسيلمة ...

وعادت نسيبة الى المدينة بيد واحدة ، ولكنها كانت قد كتبت فى تاريخ الجهاد صفحة مشرقة ، وعاشت وعاش المسلمون يكبرون بطولتها ورجولتها ..

* * *

أما « خولة بنت الأزور » ، فلها قصة حاول الخيال أن يرسم لها هالة باهرة لولا أنها بصورتها البسيطـة تعطى روعـة فوق كل خيال ...

تلثمت (خولة بنت الأزور) واندفعت فى معركة (اجنادين) التى كان يقودها خالد بن الوليد متقدمة على فرسها على نحو بهر المسلمين وقادتهم ،فقد كان الفارس الملثم يديل من الروم ويندفع فى قوة بين صفوفهم فيحصد منهم بسيفه من يحصد ، وكلما لحقت به خيل الروم كر عليهم فقاتلهم ، لم يدركه وهن ولم يتراجع ، وعجب المسلمون من أمر الفارس الملثم ، وحاولوا أن يعرفوه ، ولكنه تأبى على الكلام ولما ازداد دهش خالد سار اليه بنفسه ، وطلب اليه أن يكشف عن هويته ، فرفع الفارس نقابه عن وجه عربى كريم ، وجه امرأة ... ودهش خالد ..

ولكن خولة لم تلبث ان أزالت دهشته حين أعلنت انها كانت مع أترابها فى مؤخرة الصفوف حين جاء من أخبرها بأن أخاها « ضرار بن الازور » قد أسر فلم تلبث أن ركبت فرسها واندفعت تشق غبار الصفوف حتى نفذت الى جيش الروم تديل منه وتنتقم لأخيها ولأمتها ودينها .

وكانت نسيبة قد ربيت فى مجالات البطولة والفروسية ، تجيد الركوب وتلعب بالسيف وترمى بالرماح ، على النحو الذى عرفته العرب فى باديتها ؛ وقد بهرت الروم بهجماتها فانزعجوا لما أدانته منهم ، مما كان له أثره فى تعجيل نهاية الحرب .

وكان ضرار قد أوقع بالروم وقتل منهم عددا كبيرا ثم اقتادوه أسيرا بعد أن نفذت مؤنة سلاحه ، فلم يلبث خالد أن بعث من يخلصه ، وسارت خولة مع الركب فى الليل لا تخلط نفسها بهم ، حتى أشرفوا على واد وفرسان وسمعوا صوت (ضرار) وهو يصيح منشدا :

ألا بلغوا قومى وخولة أننى
أسير وهين موثق اليد بالقيد

وهتفت خولة : لبيك لبيك ، وانقضت على القوم تفتك بهم بسيفها البتار حتى خلص لها ضرار فعادت به .

ومن صفوف الانصار برزت « الرميصاء » أم سليم بنت ملحان (وهى أم أنس بن ملك) جعلت صداقها « الاسلام » حين أراد (أبو طلحة) أن يخطبها وهو مشرك ٠

خرجت الى معركة (حنين) مع زوجها وهى حامل تشجع الجنود وتنقل الجرحى وقد حزمت وسطها ، ووضعت فى حزامها خنجرا ٠

وهى ذات القصة المعروفة فى استقبال موت ابنها بالرضا والتسليم ، فقد مات ابنها فى غيبة أبيه فاخفت عنه الامر عند عودته ، وقامت الى ابنها فسجته بيدها بحيث لا يراه أبو طلحة عند قدومه ، واستقبلته فرحة مرحة ، فلما سألها عن الصبى قالت : انه بأحسن حال ٠

حتى اذا قدمت لزوجها حاجته ، ومضى من الليل الهزيع الأول عاودها بالسؤال : كيف الصبى ؟

فقالت : « بأحسن حال بحمد الله ومنته ، فانه لم يكن منذ اشتكى منه الليلة » فصمت أبو طلحة وكأنه لا يفهم فعاودته تقول :

أرأيت لو ان قوما أعاروا عاريتهم أهل بيت وطلبوا عاريتهم هل لهم أن يمنعوها ؟

قال : لا ٠

قالت : فاحتسب ابنك ، انه كان عارية من الله ، وقد استرده٠

فذهب الرجل فى الصباح يحكى للنبى قصتها ٠٠ فدعا له النبى فأنجب « عبد الله » ٠٠ وبلغ من أمر ايمان الرميصاء أنقالالنبى رأيتنى أدخل الجنة فاذا أنا بالرميصاء ٠٠

ومضت أم سليم تصحب رسول الله فى غزواته تسقى وتداوى، فاذا جد الجد انغمست فى الحرب غازية ولها فى الحرب حديث

وفى غزوة حنين تقلدت خنجرا مشهورا فلما سألها النبى : قالت أتخذه ان دنا أحد من المشركين بقرت بطنه وأقتل الطلقاء وأضرب أعناقهم اذا انهزموا بك ..

وقصة عائشة المخزومية احدى قصص المجاهدات فى فتـــوح الأندلس ، هذه التى فتحت باب حصن قرطبة للمسلمين بعد أن أعياهم الحصار ، وكان الجيش عندما بلغ قرطبة وعبر نهرها ، وجد أســـوار المدينة شامخة ضخمة ، فوقف عنـــدها يدبر أمره ، فلما جاء الليل ، تلثمت عائشة وكانت فى الركاب ومضت حتى تسلقت شجرة زيتون كانت الى جانب السور وتعلقت بأحد فروعها، وظلت تنتقل فى خفة حتى قذفت بنفسها الى داخل الأسوار .

وكان الجنود قد أضناهم السهر فذهبوا فى النوم وأعان على ذلك شدة البرد وهطول الأمطار ..

فلم تلبث عائشة أن شقت طريقها نحو الباب فعالجت مزاليجه ففتح لها وما كاد ، حتى هتفت « الله أكبر » فاندفعت الجموع تقتحم المدينة وتعلن من فوقها كلمة الله .

وفى يوم أسر النساء فى موقعة « صحورا » وقفت خولة بنت الأزور وكانت معهن اسيرة فأخذت تثير نخوتهن ، ولما لم يكن معهن من السلاح شىء فقد قالت : خذن اعمدة الخيام وأوتادها نحمل بها على القوم ، وناولت كل واحدة منهن عمودا وصـــحن صيحة واحدة ، وألقت خولة على عاتقها عمودها وتبعها النســـاء فقالت خولة : لا ينفك بعضكن عن بعض ، وكن كالحلقـــة الدائرة ، ولا تتفرقن فتملكن فيقع بكن التشتيت ، وأحطمن رماح القـــوم ، واكسرن سيوفهم ، وهجمت خولة وهجم النســـاء وراءها ، حتى أنقذن أنفسهن من أيدى الروم .

وقصة صفية بنت عبد المطلب ، عمة رســـول الله وأم الزبير إبن العوام ، بينما كانت مع الجموع معتصمين بالحصن فى موقعة

الأحزاب ، بصرت بفارس يهودى يطوف بالحصن فخشيت أن يقتحمه أو يدل عليه فكلمت حسان تدفعه أن ينـزل اليه ، حتى اذا يئست منه احتجزت بثوبها ، وحملت عمودا ونزلت اليه فنزلـه فقتلته وقالت ياحسان انزل اليه فاسلبه فانه ما يمنعنى من سلبه الا أنه رجل ..

وشاركت ليلى بنت طريف أخاها « الوليد بن طريف الشيبانى » فى معاركه كما شاركت غزالة الحرورية زوجها شبيب بن يزيد قائد الخوارج وبطلهم ، وقد عرضت غزالة للحجاج بن يوسف فى أربعين وهو فى أربعة آلاف فأفزع وولى ، وفى هذا قال عمران ابن حطان :

هلا برزت الى غزالة فى الوغى
بل كان قلبك فى جناحى طائر

صدعت غزالة جمعه بعساكر
تركت كتائبه كأمس الدابر

ومما يروى أنها أقسمت لتصلين فى مسجد الكوفة ركعتين احداهما بسورة البقرة ، وبرت بقسمها ، ورماها الحجاج بخمسة جيوش حتى قتلت فى موقعة الكوفة اذ غافلتها فرقة من جند الحجاج من ورائها بينما كانت تخوض فى صدور جنده .

مما رواه الجاحظ فى (البيان والتبيين) قوله : كان حبيب بن مسلمة الفهرى رجلا غزاء للترك ، فخرج ذات مرة الى بعض غزواته فقالت له امرأته : أين موعدك ، قال : سرادق الطاغية ، أو الجنة ان شاء الله ، قالت : انى لأرجو أن اسبقك الى أى الموضعين كنت به ، فجاء فوجدها فى سرادق الطاغية تقاتل الترك .

وبعد ، فان هذه الصور تكشف عن بطولة المرأة العربية منذ فجر الاسلام فى ميدان الحرب والقتال ، وفى معارك التحرير والعروبة فى عصرنا هذا للمرأة مجال وتاريخ وقصص .

المرأة العربية صانعة المجتمع

منذ مطالع تاريخ المرأة العربية تبدو وهى قوة واضحة فى المجتمع فهى من وراء الجند فى ميدان القتال يداوين المرضى ويضمدن الجراح ويحملن قرب الماء ومنهن من حملن السلاح ، ومنهن من قدن المعارك فعلا ٠٠ فقد قادت السيدة عائشة لواء معركة ، كما حاربت غزالة الحجاج بن يوسف الثقفى ، وكانت فى أربعين جنديا ، وكان هو فى أربعة آلاف ، واستطاعت أن تلقى الرعب فى قلبه ٠

وفى مجال الفكر كان لها دورها ، فى الخطابة والشعر والفتيا والحديث والسير والمغازى ٠٠ وكانت عائشة بنت طلحة نابغة فى علم النجوم ، وفدت على « هشام » فبعث الى مشايخ بنى أمية فقال : ان عائشة عندى فأسمروا معى الليلة فحضروا فما تذكروا شيئا من أخبار العرب وأشعارهم الا أفاضت فيه معهم ، وما طلع نجم ولا انار الاسمتة ٠

وكان للخيزران زوج الخليفة المهدى مكانة فى الدولة تقضى حاجات الناس فى عهد زوجها وفى عهد ابنها الهادى ٠ أما زبيدة زوجة الرشيد فقد كان لها مجال ضخم فى خدمة المجتمع ، وأبرز أعمالها أنها حجت الى بيت الله عام ١٨٦ هـ وأدركت مايعانيه أهل مكة من المشاق فى الحصول على الماء ٠٠ فدعت المهندسين والفنيين ووضعت لهم مشروعا لايصال الماء اليهم من منابعه فى الجبال فأوصلوا القنايا من عين حنين فأسالوا منها الماء تحت الصخور

حتى وصل الماء الى مكة وما زال يجرى حتى الآن ٠٠ وقالت على سبيل التحدى عندما واجهها الفنيون بصعوبة المشروع « اعملوا ولو كلفت ضربة الفأس دينارا » ٠

وقد صنعت بساطا من الديباج جمع صورة كل حيوان وكل طائر من جميع الأجناس مرسومة من الذهب وأعينها من يواقيت وجواهر ٠

وأدخلت تغييرات كبيرة على ملابس السيدات فى بغداد مما أدى الى تطور الزى فى العصر العباسى ، ويعزى اليها اتخاذ المناطق والنعال المرصعة بالجواهر

وبلغت زبيدة قدرا عظيما من الثقافة ، وكان لها حنكة سياسية واضحة فى مقاومة نفوذ الفرس فى البلاط العباسى ، وكانت تنظم الشعر وتناظر الرجال فى شتى نواحى الفكر ، ورسالتها الى المأمون على أثر مقتل ابنها الأمين تدل على مدى بلاغتها ٠

أما السيدة أم المقتدر فقد كانت ذات أثر كبير فى سياسة الدولة ، وكانت لها تابعة اسمها ثومال تقوم بشئون المظالم ، تجلس فى الرصافة وتنظر فى رقاع النـاس كل جمعة ، وتحضر القضاة والاعيان وتبرز التواقيع وعليها خطها ٠

وقد بلغ من نفوذها أنها كانت تعزل كبار موظفى الدولة اذا أساءوا التصرف ٠

وكانت « صبيحة نابهة الذكر ، أتيح لها أن تتولى اعمال الدولة وتصرفها وتؤثر فى مجال الحياة السياسية والاجتماعية ٠

وصبيحة هى زوج الخليفة الحكم المستنصر ، ثالث ملوك بنى أميـة فى الأندلس ، وكانت قد ولدت له هشام الذى ورث عرش الأندلس بعد أبيه وقد أتيح لها أن تشارك فى الحكم فى عهد زوجها وفى عهد ابنها من بعده وقد أولاها المؤرخون تقديرا كبيرا ، ذكرها المقرى فى نفح الطيب فقال انها أظهرت فى ميدان

العمل السياسى والاجتماعى حكمة وكياسة مما حمل الخليفة على اشراكها علنا فى العمل ومنحها سلطات واسعة ، وأصبحت موئل رجال الفكر والأدب ، يتجه اليها وجوه البلاد لعرض مســائلهم وقضاياهم ، وقد أتيح لها أن تشرف على وضع الخطط اللازمةللدفاع عن البلاد .

ولما أوشك زوجها على الموت ، عقدت مجلسا كبيرا ضم أشراف الاندلس وأعيانها وأخذت البيعة لابنها هشام وكان فى الحادية عشرة من عمره ، وقد اجتذبت صبيحة عواطف الشعب حيث حلت كثيرا من مشاكله وخففت عنه كثيرا من القيود والضرائب .

وفى مصر استطاعت « ست الملك » أن تصل الى مركز القيادة فى المجتمع وقد عرفت بالذكاء والحزم والكرم والحلم حتى كان والدها « العزيز » يستشيرها فى أمور الدولة ، وينفذ رأيها ، ولقد كان لها من الذكاء والنفوذ أنها كانت تثنى والدها عن هذا القرار أو ذاك على أساس اقناعه بوجهة نظرها . وقد كانت وصية على أخيهـــا الخليفة بعد وفاة أبيها فبرزت الى المجتمع وحمت الملك من المؤامرات غير أن شقيقها « الحاكم بأمر الله » قد اضطربت عقله وأثار مشاكل كثيرة للناس فحاولت أن ترده الى الصواب ، وبلغ الأمر حد التذمر، وقد زاد ذلك شدة عندما ادعى الحاكم بأن روح الله حلت فى جسده ، هنالك ناصرت ست الملك الشعب ولم تتردد فى أن تخلص البلاد منه ، وكان « لام المنتصر » دور فى المجتمع العربى ، فهى زوجة الخليفة الظاهر الفاطمى ، قد واجهت أمور الحكم عندما تولى ابنها الخلافة .

وليس دور شجرة الدر فى الحكم وقيادة الجيوش بمجهول أو منكور .

وكان طابع حيـــاة المرأة فى المجتمع العربى هو العمل حتى ضرب المثل بالورهاء التى لايتم لها عمل والخرقاء التى تدعى العمل ولا تحسنه ، فقد روى عن الحـــارث بن كعب المذحجى أن قال

لبناته : اياكم والورهاء فانها أدوأ الدواء ، وتجنبوا الخرقاء فان ولدها الى أفن يكون ٠

وقد كن فى حياة الحرب مع أعمال الحرب ، فاذا جاء السلم عملن فى غزل أصواف الغنم وأوبار الابل حتى ضرب المثل « نعم لهو الحرة المغزل » ثم كان لهن بعد ذلك الضرب على المعازف يخرجن لملاقاة بطل مظفر أو نابغ عائد ، وكن الى ذلك يعددن المطاعم ويرعين الخيل والابل ٠

ولقد عملت المرأة مع الرجل فى أدق أعماله ، فالمرأة العربية « ردينة » هى صانعة رماح البحرين ، واليهـا تنسـب الرماح الردينية ، وقد وصفها لسان العـرب بأنها أكرم الرماح جوهرا وأسرعها نفاذا ٠

وكانت السيدة خديجة وهند بنت عتبة من ذوات التجـارة الواسعة بين الحجاز والشام ٠

وقد حفظ التاريخ للمرأة العربية جمع نبات الطيب وبيعها ، ودبغ الجلود وصناعة الحصير وابتياع الثمر والعسل والسـمن واستبدالها بغيرها ، والطواف بالعطر والنداء بين النساء بالخرز لتحلية الثياب والعقود وعقود الودع ٠

وهنالك المراضع ، وكان نساء البادية يقدمن المدن والقـرى فيتعهدن الأطفال بالرضاعة ، وكن دائما من بين أهلهن أسمح خلقا ، وكان من عادة العرب اذا ولد لهم ولد أن يرضعوه فى البادية حتى يخرج بليغا نابغا فصيحا ٠

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استرضع فى بنى سعد ، وكان يقول :

أنا أعربكم ٠٠ ولدت فى قريش واسترضعت فى بنى سعد ٠

ولقد كان النبى يحب حليمة السعدية ويرعاها ويضع لهـا الوسادة اذا قدمت تزوره ، فقد عرض وهو طفل يتيم فما قبله أحد

من المرضعات الا حليمة ، التى التمست فيه البركة والخير ٠٠ قال عبد المطلب لحليمة : أن عندى غلاما يتيما قد عرضته على نساء بنى سعد فأبين أن يقبلنه ، وقلن ماعند اليتيم من الخير ، انما نلتمس الكرامة من الآباء ، فهل لك أن ترضعيه فعسى أن تسعدى به فانصرفت الى صاحبى فأخبرته فكأن الله قذف فى قلبه فرحا وسرورا فقال لى :

ياحليمة خذيه ٠٠

وكان للنساء مجالس يجتمعن فيها ، وكان عمر بن كلثوم يوصى بأن تبعد عن بيوت الرجال ، وفى غرف النساء يوجد الصندوق والخزانة والمرآة والمسرجة ، قد عرفت المرأة العربية بالزينة والحلى وتنميق الثياب وعرفت الحرير والديباج والدمقس والسندس والخز ، ولها شعار ودثار ، ومن أرديتها المعطف والربطة والوشاج وهى شقة مرصعة بالجوهر والسرق وهى شقاق من الحرير يتلفعن بها و « المطرف » وهو رداء مربع من الخز موشى بالاعلام ٠

وكان لها حليها ٠٠ فهناك التاج والاكليل والقرط والقلادة والسوار والخلخال ، ومن لواحق الزينة الطيب والصندل والعود والند ٠

وأثاثها : البساط والطنافس ، والوسائد ، وهما ذات وشى مرقوم ، والحشايا وهى مقاعد محشوة تبسط على الأرض ، والأرائك والأسرة ، أما جدران الغرف وحيطانها فكن يشددن عليها الستائر المنمقة ٠

وكانت الأم العربية مثلا عاليا فى الخلق والكرامة والتربية ٠ كانوا يطلقون على المرأة اذا أنجبت ثلاثة بنين اشتهر ذكرهن اسم « المنجبة »

ولقد حفظ التاريخ حديث زوج الحارث بن عمرو الى ابنتها فى ليلة زفافها : « انك فارقت بيتك الذى منه خرجت وعشك الذى

فيه درجت الى رجل لم تعرفيه وقرين لم تألفيه فكونى له أمة يكن لك عبدا ، واحفظى له خصالا عشرا يكن لك ذخـرا ، أما الأولى والثانية فالخشوع له بالقناعة وحسن الطاعة ، أما الثالثة والرابعة فالتفقد لموضع عينه وأنفه فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم منك الا أطيب ريح أما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، أما السابعة والثامنة فالاحتراس بماله والارعاء على حشمه وعياله ، وملاك الأمر فى المال حسن التقدير وفى العيال حسن التدبير ٠ أما التاسعة والعاشرة ، فلا تعصين له أمرا ولا تفشين له سرا فانك ان خالفت أمره أو غرت صدره ، وان أفشيت سره لم تأمنى غدره ٠

ثم اياك والفرح بين يديه اذا كان ترحا ، والترح بين يديه اذا كان فرحا ، فان الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكونى أشد ماتكونين له اعظاما يكن أشد مايكون لك اكراما ، وأشد ماتكونين له موافقة ، يكن أطول مايكون لك مرافقه ، واعلمى أنك لاتصلين الى ماتحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببت أو كرهت والله يخير لك ٠٠ »

فى ضوء هذه المعانى كانت حياة المرأة العـــربية الاجتمـاعية تصنع الرجال وتخرج الأبطال الذين قادوا المعارك وحكموا البلاد ٠

***

بلاغة المرأة المسلمة

ليس كالكلمة شيء يمكن أن يعطى صورة العقل والقدرة الكامنة والذكاء النافذ ، ولقد عرفت المرأة العربية فى تاريخها كله بالبيان أما فى مجال الشعر فان لها تاريخ طويل وشعر كثير ، ومجالها فى الكلام أقوى قوة على رسم شخصيتها واعطاء صورة نفسها ، فلقد كانت « الكلمة » سلاحا تواجه به المدلهمات يبدو ذلك فى صور باهرة فهذه أم جعفر تجادل الرشيد وتناوشــه وترد على آرائه بالعبارات الصارمة ، وزبيدة زوجة الرشيد تستشفع الى المأمون ، وبكارة الهلالية وهى تحدث معاوية ، أو ليلى الأخيلية فى مجلس الحجاج ، أو جروة بنت غالب التميمية وهى تصف قبائل العرب واحدة واحدة ، حتى تستثير معاوية فيهتف « لله درك » ..

وهناك المرأة المتحدثة بالقرآن ، لاتتلفظ فى مختلف حديث يومها الا بكلمات من الكتاب الكريم .

وقد أشار جوستاف لوبون فى كتابه حضارة العرب الى عظمة المرأة العربية قال : أما نباهة شأن المرأة وسمو مكانها فى عصــور العرب الزاهية فمما ينبىء عنه عدد اللواتى امتزن بنفــاذهن فى العلوم والآداب من نساء العرب »

وقد كانت أم كلثوم بنت على بن أبى طالب خطيبة قريش ، وكانت سورة بنت غمارة الهمدانية جريئة فى حديثها مع معاوية ، ولها شعر وأم الخير بنت الحريشى البارقية ذات الرسائل النارية الى الولاة .

وهذه صورة من بلاغة المرأة العربية :

أم البرامكة

مقالة أم جعفر بن يحيى للرشيد بعد أن فتك بالبرامكة :

« يا أمير المؤمنين : أيعدو علينا الزمان ، ويخفونا خوفا لك الأعوان ، وقد ربيتك فى حجرى ، وأخذت برضاعك الأمان من عدوى ودهرى ·

قال الرشيد : وماذلك يا أم الرشيد ·
قالت : ظئرك يحيى وأبوك بعد أبيك ·
قال الرشيد : أمر سبق وقضاء حم وغضب من الله نفذ ·
قالت : يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ·
قال الرشيد : صدقت ، فهذا مما لم يمحه الله ·
قالت : الغيب محجوب عند النبيين ·
قال الرشيد :

اذا انصرفت نفسى عن الشىء
اليه بوجه آخر الدهر تقبل

فأجابت شعرا :

ستقطع فى الدنيا اذا ماقطعتنى
يمينك فانظر أى كف تبــدل

بكارة الهلالية

ولما وفدت بكارة الهلالية فى قومها على معاوية قال لها :
– كيف أنت ياخالة ؟
– بخير ياأمير المؤمنين ·
– غيرك الدهر ؟

ـ كذلك فهو ذو غير ، من عاش كبر ، ومن مات قبر ·
ثم أورد الجالسون شعرها فى مدح على بن أبى طالب فقالت :
ـ يامعاوية : أنا والله قائلة ماقالوا ، وما خفى عليك منى أكثر
فضحك معاوية وقال : ليس يمنعنا ذلك من بـرك : اذكرى حاجتك

فقالت بكارة : أما الآن فلا ·

ليلى الأخيلية

ودخلت ليلى الأخيلية الى الحجاج فى مجلس ومعه عنبسة بن سعد العاصى فقال الحجاج :

ـ ياليلى ما أتى بك ؟

ـ أخلاف النجوم وقلة الغيوم وشدة الجهد ، وكنت لنا بعد الله الرفد ·

ـ صفى لنا الفجاج ·

ـ الفجاج مغبرة ، والأرض مقشعرة ، وذو العيال مختل ، أصابتنا سنون مجحفة أذهبت الأموال وفرقت الرجال وأهلـكت العيال ·

المتكلمة بالقرآن

قال عبد الله بن المبارك : خرجت حاجا الى بيت الله الحـرام فبينما أنا فى بعض الطريق اذا أنا بسواد فميزت ذاك ، فاذا هى عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف فحادثتها فاذا هى لاتتكلم بكلام الناس وانما تتحدث بالقرآن :

قلت : السلام عليك ورحمة الله ·
قالت : سلام قولا من رب رحيم ·
قلت : يرحمك الله ، ماتصنعين فى هذا المكان ؟
قالت : من يضلل الله فلا هادى له ·

قلت : أين تريدين ؟

قالت : سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ٠

قلت : أنت منذ كم فى هذا الموضع ؟

قالت : ثلاث ليال سويا ٠

قلت : ما أرى معك طعاما تأكلين ؟

قالت : هو يطعمنى ويسقين ٠

قلت : فبأى شىء تتوضئين ؟

قالت : فان لم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا ٠

قلت : ان معى طعاما فهل لك فى الأكل ؟

قالت : ثم أتموا الصيام الى الليل ٠

قلت : ليس هذا شهر رمضان ٠

قالت : ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم ٠

قلت : قد أبيح لنا الافطار فى السفر ٠

قالت : وان تصوموا خير لكم ٠

قلت : لم لاتكلميننى مثل ما أكلمك ؟

قالت : مايلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد ٠

قلت : فمن أى الناس أنت ؟

قالت : ولا تقف ماليس لك به علم ٠

قلت : قد أخطأت فاجعلينى فى حل ٠

قالت : لاتثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ٠

قلت : فهل لك أن أحملك على ناقتى هذه فتدركى القافلة ؟

قالت : وما تفعلوا من خير يعلمه الله ٠

قلت : اركبى (بعد أن أنخت ناقتى) •

قالت : قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم •

فلما ركبت قالت : سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وانا الى ربنا لمنقلبون •

فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسرع فقالت :

ـ واقصد فى مشيك •

فجعلت أمشى رويدا وأترنم بالشعر فقالت :

ـ فاقرءوا ماتيسر من القرآن •

قلت : ألك زوج ؟

قالت : يأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشـــياء ان تبد لكم تسؤكم •

فلما وصلنا القافلة . قلت لها : هذه القافلة فمن لك فيها ؟

قالت : المال والبنون زينة الحياة الدنيا •

قلت : وماشأن أولادك فى الحج ؟

قالت : وعلامات وبالنجم هم يهتدون •

(فعلمت أنهم أولاء الركب) فلما قصدنا مكانهم قلت لها :

ـ من لك هنا ؟

قالت : واتخذ الله ابراهيم خليلا ، وكلم الله موسى تكليمـــا يايحيى خذ الكتاب بقوة •

فناديت : يا ابراهيم . ياموسى ، يايحيى :

فلما قدموا واستقر بهم الجلوس معها قالت :

ـ فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر ايها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه .

فلما حضر الطعام قلت لأولادها :

– حتى تخبرونى بأمرها ، قالوا : هذه أمنا منذ أربعين سنة لاتتكلم الا بالقرآن ٠

رسالة زبيدة

وأرسلت السيدة زبيدة زوجة الرشيد الى المأمون بعد وفاة ابنها الأمين رسالة استعطاف قالت :

« كل ذنب ياأمير المؤمنين وان عظم صغير فى جنب عفوك ،وكل اساءة وان جلت يسيرة لدى حلمك ، وذلك الذى عودك الله اطال مدتك وتمم نعمتك وأدام بك الخير ودفع عنك الشر والضر ٠

وبعد فهذه رقعة الولهى – التى ترجوك فى الحياة لنوائب الدهر وفى الممات لجميل الذكر . – فان رأيت أن ترحم ضعفى واستكانتى وقلة حيلتى وان تصل رحمى ، وتحتسب فما جعلك الله له طالبا وفيه راغبا – فافعل – وتذكر من لو كان حيا لكان شفيعى اليك ٠

جروة بنت غالب

دعا معاوية فى مكة « جروة بنت غالب التميمية » فلما دخلت عليه :

قال : أرسلت اليك تخبرينى عن قومك ؟

قالت : عن أى قومى تسألنى ؟

قال : عن بنى تميم ٠

قالت : هم أكثر الناس عددا وأوسعه بلدا وأبعده أمدا ، هم الذهب الأحمر والحسب الأفخر ٠

قال : ضعى كل عشيرة فى موضعها ٠

قالت : أما بنو عمر بن تميم فأصحاب بأس ونجدة وتحاشد وشدة ، لايتخاذلون عن اللقاء ، ولا يطمع فيهم الأعداء فى سلمهم

وسيفهم على عدوهم أما بنو سعد بنى زيد مناه ففى العدد الأكثرون ، وفى النسب الأطيبون يضرون ان غضبوا ويدركون أن طلبـــوا ، أصحاب سيوف . على أن بأسهم فيهم وسيفهم عليهم ، أما حنظـــلة فالبيت الرفيع ، والحب البديع والعز المنيع .

قال : انت أعلم الناس بتميم فكيف علمك بقيس (قبيلةأخرى)؟

قالت : كعلمى بنفسى .

قال : فخبرينى عنهم .

قالت : أما غطفان فأكثر سادة وأمنع قادة ، وأما فزارة فبيتها المشهور وحسبها المذكور ، أما ذبيان فخطباء وشعراء ، أعزة أقوياء ، أما عبس فجمرة لاتطفأ ، وأما هوازن فشوكة مسمومة ، أما هلال قاسم فسخر ، أما بنو كلاب فعدد كثير .

قال : لله أنت فما قولك فى قريش ؟

قالت : هم ذروة السنام وسادة الأنام .

* * *

مجالس المرأة المسلمة

سكينة بنت الحسين
وولادة بنت المستكفى
وعلية بنت المهدى

كانت للمرأة المسلمة العربية منذ عهد بعيد قصة فى مجالس العلم وندوات الفكر ، تكشف عن قدرتها وذكائها وروحها المشرقة المتطلعة الى المجد ومجالس سكينة بنت الحسين من أرفع هذه المجالس وأكثرها ذكرا فى التاريخ وأبعدها أثرا فى قضايا الفكر والبحث والأدب .

فقد كانت تجالس الأجلة من قريش ويجتمع اليها الشعراء والأدباء والمغنون فيحتكمون فيما ينتجون من آثار ، فتكشف لهم عن مدى ما فى آثارهم من جودة أو ضعف ..

ولطالما اجتمع فى مجلسها جرير والفرزدق وجميل ونصيب والأحول ، ولطالما ادعى كل منهم انه أشعر الشعراء ثم تراضوا برأيها فيهم وفى شعرهم . وكانت ترجعهم فى اشعارهم وتعتب على من افشى سره او انحرف بعبارته ..

دخل عليها الفرزدق وادعى أنه أشعر الناس فأخذت تورد له من أشعار جرير وغيره ، وهكذا كانت تراجع الشعراء فى شعرهم وتكشف لهم عن وجوه الخطأ أو الانحراف فى آدائه وفى معانيه .

وكانت تعطيهم العطايا وتدفعهم الى جيد الشعر وتصرفهم عنهجر الكلام وقد تزوجت سكينة من عبد الله بن الحسن بن علي ،وتزوجت من بعده من مصعب بن الزبير ، فعبد الله بن عثمان الخزامى ٠

وقد مهرها مصعب خمسمائة الف درهم واجهزها بمثلها ،ودخل عليها يوم قتل فنزع عنه ثيابه ولبس غلالة وتوشح بثوب وأخذ سيفه فلما رأت ذلك سكينة ظنت أنه أزمع الاستشهاد ٠٠ فصاحت من خلفه ترده ٠٠ وتكشف له عن صادق عاطفتها ٠٠

ولما قتل مصعب قالت سكينة :

فان تقتلوه تقتلوا الماجد الذى
يرى الموت الا بالســـــيوف حراما
وقبلك ما خاض الحسين منيـــــة
الى القـــوم حتى أوردوه حمـــاما

فلما عرض عليها مصعب بن عبد الملك بن مروان الزواجرفضت وقالت : والله لايتزوجنى قاتله أبدا ٠

ولما تزوجها زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان شرطت عليه ألا يغيرها ولا يمنعها شيئا تريده ٠

وصفها المؤرخون بأنها كانت عفيفة برزة من النساء ظريفةمزاحة قالوا لها : مال أختك فاطمة ياســكينة ، أنت تمـزحين كثيرا وأختك لاتمزح . فقالت : لانكم سميتموها باسم جدتها المؤمنـــــة وسميتمونى باسم جدتى التى لم تدرك الاسلام ٠

وكانت بليغة العبارة ، لسعتها دبيرة فقالت : لسعتنى دبيرة مثل الابيرة أوجعتنى قطيرة ٠

وكانت سكينة من أحسن الناس شعرا ، وكانت تصفف جمتهـا تصفيفا لم ير أحسن منه حتى عرف ذلك وسميت تلك « الجمـــــة السكينية »

وكانت ذات بيان وفصاحة ٠٠ قالت ابنة لعثمان بن عفان فى مأتم كانت فيه سكينة : أنا بنت الشهيد ، فسكتت سكينة ،فقال المؤذن : أشهد أن محمدا رسول الله . قالت سكينة : هذا أبى وأبوك فقالت بنت عثمان : لا أفخر عليكم ابدا ٠٠٠

وقد قدمت مع أهل بيتها بعد مقتل أبيها الى دمشق ، ثم خرجت منها الى المدينة ، ويقال انها عادت بعد ذلك الى دمشق وحدثت عن أبيها وروى عنها فايد المدنى ، مولى عبد الله بن أبى رافع ، وروى عنها أهل الكوفة ٠٠

توفيت عام ١١٧ هـ ٠

ويمضى الزمن اكثر من ثلاثمائة عام ، وننتقل من مكة الى الاندلس لنلتقى مرة أخرى بمجلس من مجالس العلم والأدب والفكر والشعر، انه مجلس ولادة بنت المستكفى بالله شاعرة أديبة من شـــواعر وأديبات الأندلس جزلة القول : حسنة الشعر ،كانت تناضل الأدباء وتساجل الشعراء ، وتفوق أهل البراعة ، حفظ لها التاريخ صورة رائعة من حسن المحاضرة وطيب المذاكرة وعرفت كما عرفت سكينة بالصيانة والعفاف ، فكان مجلسها فى قرطبة شبيها بمجلس تلك فى مكة ، منتدى للاعلام والمفكرين ٠

كما وصفت بأنها شبيهة بعلية بنت المهدى فى المشرق ، من حسن فائق وخفة روح ، ومما يروى عنها أنها مرت بالوزير أبى عامر بن عبدوس ؛ وامام داره بركة تتولد عن كثرة الامطار فقالت له :

انت الخصيب وهذه مصـــــر :
فتدفقا فكلاهمــــا بحـــــر

وقد كتبت بالذهب على طراز ثوبها :

انا والله أصلح للمعـــالى
وأمشى مشيتى وأتيه تيهـــا

وقد عرف مجلسها بأنه قلما كان يخلو من صديقتهـــا الأديبة وصفيتها الشاعرة « مهجة القرطبية » وكانت هى الأخرى مصـــدر الهام ومثار عاطفة ٠

ومما نظمه ابن زيدون فى عاطفته تجاه الولادة قوله :

ودع الصبر محب ودعـــك
ذائع من سره ما استودعـــــك
يفرع السن على ان لم يكـــن
زاد فى تلك الخطأ اذ شيعـك
ياأخا البدر سنـــاء وسنـــا
حفظ الله زمانا أطلعـــــك

توفيت عام ٤٨٠ هـ ٠

***

أما علية بنت المهدى فكان لها مجلس ثالث فى بغداد ٠٠وصفها المؤرخون بأنها من أحسن النساء وأعقلهن ذات صيانة وعفة وأدب بارع ، تقول الشعر الجيد وهى التى اتخذت العصائب المكـــللة بالجواهر ، كانت تقبل على الصلاة والقراءة وقراءة الكتب ؛ وتحـــب الشعر وتكلف به ٠ وكانت تقول : لا أقول فى شعرى عبثا ٠ وكان أخوها الرشيد يحبها ويصطحبها فى أسفاره ٠

وهى التى قالت تناجى بغداد وقد اشتاقت اليها :

ومغترب بالمـــرج يبكى لشجـــوه
وقد غاب عنه المسعدون على الحب
اذا ما أتاه الركب من نحو أرضـه
تنشق يستشفى برائحة الركن

وقد جزعت لموت الرشيد جزعا شديدا ٠٠ ولعلية ديوان شعر معروف ٠٠ وتوفيت عام ٣١٠ هـ

ولا شك أن مجالس المرأة العربية القديمة تعطى صورة الايمان بحق المرأة فى العلم والبحث والسجال ، وقد خلقت هذه المجالس فى الأدب العربى آثار حية باقية ؛ وتركت روحا طيبة وانفاسا معطرة ..

الباعونية الفقيهة المحدثة

عشرات من كتب الأدب والتراجم والفقه فى تراثنا الفكرى تتحدث عن دور المرأة فى مجال الفكر والادب والتأليف ، هذا الجانب الحى النابض بالحياة . مئات من المحدثات والفقيهات فى مكة والمدينة والقاهرة وقرطبة ودمشق وبغداد ؛ كن يجلسن فى المساجد ويحدثن ويأخذن الفقه ويروين الاثر ،فاذا راجعت : «البدر الطالع »للشوكانى و « شذرات الذهب » لابن العماد و « الدرر الكامنة » لابن حجر ، و « مرآة الجنان » لليافعى و « بغية الوعاة » للسيوطى و « ثمرات الأوراق » لابن حجة استلفت نظرك ذكر المرأة الفقيهة المحدثة الكاتبة المؤلفة الى جوار المرأة الشاعرة والمرأة المحاربة .

ومجال البحث ليس هو عصر النبوة والفتح : ولا هو العصر الحديث ، وانما هذه الفترة الطويلة الممتدة التى قد تصور بأنها من فترات الضعف والركود .

ففى القاهرة (أم الهنا) المصرية بنت القاضى ناصر الدين البدرانى كانت شيخة صالحة مباركة . لها رواية فى حديث رسول الله تتلقاه عن شيخوختها حتى اذا اتقنت هذه الاحاديث حفظا وفهما سمح لها شيوخها أن ترويها للناس (٩١١ هـ) . و (فرح) المصرية بنت الامين الدواردار يشبك ،وأمها بنت الملك المؤيد كانت محدثة تالية للقرآن وفى حلب « فاطمة بنت الحنبلى » تلقت الحديث عن الشيخ برهان الدين ، وخديجة بنت البيلونى ؛ أجاز لها الشيخ الكمال ابن الناسخ الطرابلسى ؛ و «توران » الحلبية بنت القاضى (محمد أثير الدين)

درست العلوم ولها نثر ونظم ٠ و « باى خاتون » الحلبيـــة قرأت على عمها شيخ الاسلام زين الدين أبى الشماع كتاب الاحياء للغـزالى

وكتاب المنهاج للنووى ، فاطمة بنت قريمان ، وكانت رئيسة للزاوية العدلية لها مؤلفات وكتب كثيرة ، وعبارتها فصيحة : أخذت العلم عن زوجها كمال الدين الاردبيلى . وأم الخير الدمشقيـة التى تلقت العلم عن الجمال الحنبلى وأجازها فى العلم الشيخ الشرف بن الكويك ٠ و « خديجة بنت نصر الله » تلقت العلم عن شيخ الاسلام رضى الدين الغزى ، و (زينب) بنت الشيخ رضى الدين الغزى لهـا شعر وكتابات ٠

وفى بغداد فاطمة بنت محمد بن أبى سعد (٤٤٠هـ) وفاطمة بنت محمد بن شديد المنفى التى تعتبر شاعرة القرن التاسع للهجرة

وفى المدينة المنورة فاطمة بنت أحمد بن قاسـم الحرانى ، وهناك فاطمة بنت أحمد المحدثة المؤرخة (٧٦٠ هـ) سمعت المستجاد من تاريخ بغداد وأجازها الفقهاء ٠

وفى البدر « الطالع » للشوكانى ذكر لفاطمة بنت أحمد بن يحيى قال عنها انها عالمة فقيهة كانت تستنبط الاحكام الشرعية وتباحـث فيها ، وكان زوجها الامام المطهر يرجع اليها فيما يشكل عليـه من مسائل ، ويذكر الرحالة ابن بطوطة (زينب) بنت أحمد عبد الرحيم المولودة ٦٤٦ هـ ، قال انها محدثة جليلة سمع عنها فى جامع بنى أمية فى دمشق ٠

وممن علا ذكرهن : ست الفقهاء بنت ابراهيم بن على بن أحمـد وعبد اللطيف بن القفطى وسمع عنها مسند موسى بن جعفر بن محمد وقرأ عليها امال محمد بن مخلد العطار وخرج عنها كتاب « بغية وقرأ عليها أمال محمد بن مخلد العطار وخرج عنها كتاب « بغيـة الملتمس فى تساعيات حديث ملك بن أنس » تخريج صلاح الدين العلائى وجرى فى مصر ذكر (فاطمة) الازهرية التى أخذت عنهـا

عائشة تيمور ؛ وأشار صاحب شذرات الذهب الى (فاطمـة) بنت الحسن بن على الاقرع المتوفية (٤٨٠ هـ) وقال انها كاتبة من احسن الناس خطا وأنها كتبت كتاب الهدنة الى ملك الروم من الـديوان العزيز قال البزاز العرضى : ان فاطمة بنت الاقرع كتبت ورقة لعميد الملك الى النصر الكندى وأعطاها ألف دينار ٠

وفى الاندلس جاء ذكر « ماريا » بنت أبى يعقـوب الفيصـل وصفت بأنها عالمة اندلسية غزيرة المعارف . رقيقة الشعر ، يدعوها الافرنج بكورينا العربية ٠

وهناك « العبادية » جارية المعتضد بن عباد : وصفها المقرى صاحب نفح الطيب بأنها أديبة كبيرة وكاتبة مجيدة وشاعرة من أشعر شواعر زمانها ، وذكرها ابن قتيبة فى كتابه أدب الكاتب واستشهد بكتاباتها ٠

وفى بغية الدعاة للسيوطى ذكر « لأم هانى » بنت على الهروينى (٧٧٨ هـ) كاتبة فاضلة ومحدثة ٠

هذا الى عشرات وعشرات من النابغات فى مجال الحديـث والرواية والفقه فى العالم العربى كله والعالم الاسلامى ، يحدثن ويروين من صحيح البخارى ومسلم ويفسرن ويفتين فى أحكام الفقه لايحول بينهن وبين ذلك شىء وربما ذهبت احداهن تلقى هذا الحاكم أو ذاك فى أمور أهلها أو وطنها ، وقد ترحل من جزء من الوطن العربى والى أجزاء أخرى فى سبيل العلم ، فاذا أردنا أن نقدم نموذجا لحياة هذه النماذج من الفقيهات المحدثات الكاتبات المؤلفات وجدنا صورة خصبة رائعة فى حياة (عائشة الباعونية) التى وصفت بأنهـا أعلم نساء القرن العاشر الذى عاشت فيه حتى وضعها المؤرخون فى صف كبار الصحابيات والتابعيات ،وقالوا أنه ربما لم يقم فى الاسلام من يشبهها فى العلم والفضل والتفنن فى النظم والنثر والاجادة فى التصنيف والتأليف ؛ وقد جمعت بين علوم الدين وعلوم التصوف ٠

والباعونية فى نساء الخلف ـ فى تقديرهم ـ كالخنساء الشاعرة فى نساء السلف ولعل ابرز مافى حياتها وأروعه ، انها تعلمت فى مصر القاهرة ، فقد قدمت القاهرة ونالت من العلم نصيبا وافرا ، وأجازها شيوخها بالافتاء والتدريس ثمعادت الىوطنها الشامدمشق فحدثت فى جامع بنى أمية ؛ وألفت كتبا ماتزال حتى الآن تشهد لها بالسبق والنبوغ ٠

قال الغزى فى كتابه الكواكب السائرة : هى الشيخة الأديبة العاملة الصوفية ، أحد أفراد الدهر ونوادر الزمان فضلا وعلما وأدبا وشعرا وديانة ٠

ووصفتها زينب فواز فقالت : كان على وجهها من الجمال لمحة جملها الأدب ، وحلتها بلاغة العرب ، فجعلتها بغية الطالبين ومنة الراغبين ، ووصفها الشيخ عبد الغنى النابلسى بأنها فاضلة الزمان وخليفة الأدب فى كل مكان ٠

***

وقد صورت عائشة حياتها فقالت :

كان مما أنعم الله على أننى بحمده تعالى لم أزل أتقلب فى أطوار الايجاد فى رفاهية لطائف البر الجواد ، الى أن خرجت الى هذا العالم المشحون بمظاهر تجلياته ، الطافح بغرائب قدراته وبدائع آياته ، المشوبة موارده بالأقذار والأكدار ٠ الموضوع بكمال القدرة والحكمة للابتلاء والاختبار دار ممر لابقاء لها الى دار القرار فرباني الملطف فى مشهد النعمة والسلامة ، وغذانى بلبان مدد التوفيق ، لسلوك سبيل الاستقامة ، وفى بلوغ درجة التمييز ، أهلنى الحق لقراءة كتابه العزيز ، ومن على بحفظه على التمام ؛ ولى من العمر ثمانيةأعوام ثم لم أزل فى كنف ملاطفات اللطيف حتى بلغت درجة التكليف ٠

وقد حفظ التاريخ للباعونية ثمان مؤلفات : هى (١) الفتح الحفنى ، (٢) الملامح الشريفة والآثار المنيفة ، (٣) دور الفائض فى بحر

المعجزات والخصائص ؛ (٤) الاشارات الخفية فى المنازل العلمية ، (٥) المورد الأهنأ فى المولد الاسمى (٦) فيض الفضل (ديوان شعر) (٧) الفتح المبين فى مدح الامين (٨) أرجوزة عن كتاب السخاوى القول البديع فى الصلاة على الشفيع ·

وقد أشارت مقدمة كتابها (الفتح المبين) ·· الى طريقتها فى الكتابة وهدفها فقالت : هذه قصيدة صادرة عن ذات قناع شاهد بسلامة الطباع منقحة بحسن البيان مبنية على اساس تقوى الله ورضوان ، سافرة عن وجوه البديع سامية بمدح الحبيب الشفيع مطلقة من قيود تسمية الأنواع ، مشرقة فى أفق الابتداع ، موسومة بين القصائد النبويات بمقتضى الالهام الذى هو عمدة أهل الاشارات

ومن شعرها فى وصف دمشق :

نزه الطرف فى دمشق ففيها :
كلما تشتهى وتختار

هى فى الارض جنة فتأمل
كيف تجرى من تحتها الانهار

كم سما فى ربوعها كل قصر
وأشرقت فى سمائه الأقمار

وتناغيك بينها صادحات
خرست عن نطقها الاوتار

كلها روضة وماء وزلال
وقصور سكانها أبرار

وكانت حياة عائشة الباعونية حياة علم وثقافة منذ شبت عن الطوق ، فهى بنت القاضى يوسف بن احمد بن ناصر الدين نسبة الى باعونة (احدى قرى عجلان) عاشت نحوا من سبعين عاما ، قصدت مصر القاهرة مرتين ، الأولى فى صباها حيث نبغت فى العلم

وأخذت الاجازة فى الحديث والافتاء ثم عادت الى القاهرة بعد اكثر من خمسين عاما من رحلتها الأولى وقد اصيبت فى الطريق وضاعت منها بعض مؤلفاتها وقصائدها التى كانت تحملها معها ٠

عاشت فى أواخر عصر قنصوه وماتت فى نفس العام الذى انتصر فيه السلطان سليم على قوات مصر والشام ٠

وفى رحلتها الثانية الى مصر صحبها (أبو الثناء محمود الخلبى) رئيس ديوان الانشاء فى حكومة مصر حيث أنزلها فى داره وأكرمها وقدمها الى شيخ الادب والادباء فى مصر السيد عبد الرحيم العباسى؛ وقد كانت رحلتها الى مصر ٩١٩ هـ ثم الى حلب ٩٢٢ هـ حيث كان بها السلطان الغورى ، واجتمع بها كل من البدر السيوفى وتلميذه الشمس السفيرى ، ويبدو ان هذه الرحلات كانت ذات صلة بأمور تتعلق بالحرب بين العرب والعثمانيين فقد كان الآباء والأمهات فى هذا الوقت يعيشون فى وجل شديد من أجل أولادهم وفلذات أكبادهم ، ولعلها كانت تسعى لتطمئن الى مصير هؤلاء المجندين ، وربما كان ذلك متعلقا بابن لها كان بين هؤلاء المجندين ٠

توفيت بعد أن عاشت الباعونية حياة خصبة ، وفى هذه الفترة الدقيقة من حياة الأمة العربية ؛ ولكنها كانت كأمثالها ممن ذكرن من الفقيهات المحدثات ، مثلا عاليا للخلق والفضل ، وللذكاء والنبوغ ٠ وقد تركن تراثا نافعا من الكتب والرسائل والآثار فى مجال الفقة والحديث والتصوف ؛ توفيت الباعونية عام ٩٢٢ هـ وقبرها بدمشق معروف ٠

ولعل أبحاثا واسعة تجرى فى تقويم هذا التراث والكشف عنه، وبيان فضل المرأة العربية المسلمة فى مجال الثقافة والفكر والأدب ٠

شجـــرة الـــدر

تعطينا شجرة الدر صورة مشرقة للمرأة الذكيـــة الناضجة التى استطاعت أن تلعب دورا ضخما فى حياة مصر فى أشد مراحلها اضطرابا وقلقا ٠ لعبت هذا الدور قوية الأعصـــاب صـــامدة فى أهابها حكمة وحنكة ، ولو قد تخلت الحكمة والكياسـة واللبـــاقة عنها فى هذا الموقف الخطير لتحول الأمر من وضـع الى وضـــع ولكان خليقا بالتاريخ أن يرسم صورة مغايرة تمام المغايرة لما حدث من بعد ٠

ذلك أنها صمدت فى وجه الأحداث بعـــــد وفاة زوجها الملك الصالح بقدرة فذة وكتمت أمره ، ومضت تصدر الأوامر باسمه ، وتقيم المراسيم كاملة وتصرف الأمور كما لو كان حيـا فى حجرته أو سريره ٠٠

وفى خلال الأيام القاســـية كتمت « شـــجرة الدر » عاطفتها الانسانية وكظمت حزنها على وفاة زوجها الحبيب حتى جاء توران شاه ، وتولى زمام الأمور ، هنالك أعلنت نبأ الوفاة ٠٠

وعندها عادت طبيعة المرأة ، فانكبت تبكى وتنتحب حزنا على الرجل الذى اختارها ورباها ورفعها الى مقـام الملك معه ، وهى الفتاة الأرمنية التى صحبته زوجة فى حياته كلها ، وحبست معه فى سجن الملك الناصر داود صاحب حلب بالكرك سنة ٦٣٧ هـ وكانت آية الذكاء والدهاء والنبوغ ، فلطالما وجد عندها الرأى الصالح والحكمة النافذة ، والرأى الراجح ٠

وكأنما الأيام تعدها لموقف خطير ، لقـــد مات زوجها الملك الصالحفجأة والمعركة دائرة مســـتعرة الأوار بين مصر والفرنجة الذين هاجموها بعدد ضخم من مرتزقة أوروبا وبقيادة لويس ملك فرنسا فى حملة صـــليبية ثامنة من حمــلات الغزو الغربى التى استمرت قرنين كاملين ، ومن حملات ثلاث وجهت الى موانىء مصر للقضاء على قلب العروبة والاسلام ٠

وكان الموقف دقيقا ، فقد زحف الفرنجة على دمياط فاستولوا عليها ومضى الملك الصالح يدبر الخطط ويحشد الجيوش ويصدر المراسيم وهو مريض محمول على محفة ستة أشهر كاملة ، والموقف ما يزال غامضا مظلما ٠٠ كأنه الليل الطويل الذى لما يطلع فجره بعد ، وبينما الموقف فى أدق مراحل الخطر والمصريون الماجدون يجاهدون عدوا شــديد المراس وهم أحوج ما يكونون الى ما يقوى العزم ويشد العزائم ٠٠

بينما الأمر كذلك يموت الملك الصالح ، وابنه توران شاهمازال يجالد فى محاصرة حصن كينا من أعمال ديار بكر ٠

وكانت شجرة الدر تعرف بذكائها اللمــاح مدى الخطر الذى يتعرض له الجنود ويفت فى عضد المقاومة لو أذيع نبأ وفاة العاهل الكبير ٠

عندئذ أخفت الخبر ، وبقيت تستعجل عودة توران ، بينمـــا أخذت الموثق والعهد على كل من وقف على خبر وفاته ، وأرسلت الجثمان تحت جنح الظلام حيث دفن بالروضة ، وظلت النظم قائمة والأمور تسير فى مجراها كما لو كان الملك الصالح حيا ، الأمراء يحضرون كالعادة ، والديوان يستقبل الوفود ، والأوامر تصـــدر يوميا بتصريف شئون الدولة ممهورة بخاتم الملك ٠

وشجرة الدر قادرة على أن تبتسم وتتصرف دون أن تضطرب أو تغلبها العاطفة وقد أعانها على ذلك خبرة عرفتهـــا من ملازمتها

لزوجها الحاكم فى قلب المعسكر طوال الفترة الماضية فاستطاعت أن تلم بكل شىء مما أتاح لها أن تصرف الأمور مستعينة بالأمير فخر الدين قائد الجيش ومحسن الطوسى ..

وكان السماط يمد فى مواعيده كأنما السلطان حى .. ومضت شجرة الدر تنفذ الخطط الحربية فى براعة ودقة ، مستعينة بالخبراء والقادة .

وفى خلال هذه الفترة استطاع الجيش المصرى أن يقبض على ناصية الأمور وأن يهزم الفرنجة ويسحق قواتهم ويأسر ملكم لويس فى المنصورة بعد واقعة الصالحية المشهورة .

انها ثلاثة شهور كاملة احتملت خلالها شجرة الدر هذا العبء القاسى وواجهت هذه المتاعب المرهقة الضخمة واستطاعت بذكائها ولباقتها أن تحفظ وحدة الجيش والأمراء ، وأن تنقذ البلاد ، فضلا عن النصر الذى تحقق بفضل هذا العمل الرائع فى موقعة فاصلة ضخمة .

كانت تعرف أن وفاة السلطان سوف تثير الأحقاد بين الأمراء وتمزق وحدة الجيش وتفزع الأمة وتفت فى عضدها ، فأخفت عاطفتها وأدت دورها على وجه غاية فى البراعة والقوة والحزم حتى انتصرت وأسلمت مقاليد الحكم الى توران شاه الذى أعلن موت الملك الصالح .

ولا عجب أن تقوم شجرة الدر بهذا الدور الضخم البعيد الأثر فى تاريخ العروبة والاسلام ، فقد كان لها من خبرتها فى مجال الصراع بين الأمراء وقربها من مكان الحكم ما مكن لها وأنجح خططها وقد عرف عنها الذكاء والبراعة ، ولعل هذا هو الذى قدمها بين ألوف الفتيات اللائى كن يعشن فى قصور الملوك والأمراء الى مكان الصدارة .

وقد قدر لها نجم الدين حسن الخلال ووفرة الجمال والسحر والثقافة البـارعة والدهاء وحسن تصريف الأمور فأعتقها وتزوجها فأصبحت سيدة القصر الشرعية ووصفها الذين عاصروهـا بأنها كانت قوية الشخصية وافرة الهيبـة تميل الى التـدين وتحب أعمال الخير ٠

غير أن نجمها الذى ارتفع حتى وصل الى الذروة فى معارك دمياط أخذ يضطرب بين ارتفاع وانخفاض ، ولعل بلوغها منصة العرش كان مصدر المتاعب والمناورات بينها وبين الأمراء ، فقد أثار ذلك الأمر ضجة كبرى ورفض الخليفة فى بغداد اقراره ، فلما تزوجت أحد الأمراء الذى رشحته للحكم من بعدها وقفت وراءه تصرف الأمور دونه وتضع كل الخيوط فى يدها ، فلمـا اختلفت معه وأحست أنه يفكر فى القضاء عليها ، سـبقته الى نيته ، ثم اضطربت الأمور فاعتقلت فى « البرج الاحمر » أياما وهى تعانى الروع وتشعر بالمصـير المجهول ، حتى وضعت المؤامرات نهاية حياتها ٠

فهى قد نجحت من حيث هى امرأة استطاعت أن تكبت مشاعر الأنثى ، ثم هى فشـلت عنـدما أطلقت قواها النفسـية الى غاياتها ٠٠

كان خلافها مع الأمير عز الدين أيبك الذى تنازلت لـه عن الملك مصدر متاعبها ٠ وكان قد ارتفع بها السن دون أن تنجب وقد اضطربت فى أعماقها عواطف الغيرة فلما بدت لها شكوك تلون الأمير وتآمره ، واتجاهه الى الزواج بابنة صاحب الموصل ؛ كل هذا دفعهـا الى أن تقضى عليه ، ولم يمهلها القـدر فقـد كانت بلغت النهاية ٠٠

الشيخة فاطمة

لم تكن دعوة « قاسم أمين » هى الصيحة الأولى فى الحقيقة ، كان هناك مجال مفتوح للمرأة منذ بعيد ، ولكنه كان أشبه بالمغلق ذلك هو الأزهر الشريف ، فقد اتجهت كثيرات من النساء اليه ، واتصلن بحلقات الوعظ فى المساجد الكبرى، وأتيح لهن أن يسألن الشيوخ فى مسائل الفقه وأن يشهدن الصلوات الجامعة ، وفى رمضان كان نشاطهن فى هذا المجال واضحا ٠

وقد حفظت المرأة القرآن فى الكتاتيب ، وقرأته فى البيوت ،

واشتهرت منهن قارئات لهن صوت جميل وأداء طيب ٠
وفى مطالع العصر شهد الجامع الأزهر عددا من النساء على وجه التأكيد وباجماع المؤرخين كن يتلقين العلم فى حلقات المشايخ : القويسنى ، والسقا ، وعلى الصعيدى ، والعدوى ، والخضرى ٠

وقد كان الشيخ القويسنى من أصحاب الحلقات فى الأزهر قبل منتصف القرن التاسع عشر ، وتولى المشيخة من ١٨٣٤ الى ١٨٣٨ ٠

واذا كان التاريخ لم يسجل « ثبتا » كاملا للشيخات فلأنهن لم يطلبن الشهادات ، فقد كان طلبهن للعلم تدفعه الرغبة فى

التفقه فى الدين والاستزادة منه ، وقد استطاعت الكثيرات منهن أن يعقدن حلقات للعلم فى بيوتهن ودواويرهن فى أيام معينة يتحدثن فيها بعد صلاة العصر الى نساء الحى .

كما أن أجازات الأزهر تعطى من أجل الفتيا والتدريس وهو ما لم تكن تطمع فيه المرأة اذ ذاك .

وفى ابان تولى الشيخ « حسن العطار » مشيخـــة الأزهـــر ١٨٣٠ ــ ١٨٣٤ سافر رفاعة الطهطاوى الى باريس حيث استطاع أن يحقق نجاحا كبيرا ، كان طموحا كأســـتاذه الى النهضـــة والتجديد . وكان صـــوته الى تعليـــم المرأة من الأصـــوات التى ارتفعت فى هذه الفترة قبل قاســـم أمين بأكثر من ستين عاما ، ولعله رأى كيف تقبل المرأة على الدراسة فى الأزهر حيية لاتجد لها سندا ، فاذا حاولت أن توســـع مجالها أو تؤكد بقاءها لم تجد مشجعا لها .

ولذلك فقد دعا رفاعة الطهطاوى الى أن يفسح لهـــا مجال التعليم ليس فى الأزهر وحده ولكن فى كل فنونه وأنواعه قال :

ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معـــا ، فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحســـاب ونحو ذلك ، فان هذا ممـــا يزيدهن أدبا وعقلا ويجعلهن بالمعارف أهلا ، ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى والتمكين للمرأة عند اقتضـــاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعـــاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها ، فكل مايطيقه النساء من العمـــل يباشرنه بأنفسهن ، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ، فان فراغ أيديهن من العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعـــال الأفاعيل ، فالعمل يصون المرأة عما لايليق ويقربها من الفضيلة ، واذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة عظيمة فى حق النساء ، فان المرأة التى لاعمل لها تقضى الزمن خائضة فى حديث

جيرانها وما يأكلون وما يشربون ويلبسون ويفرشون ، وفيما عندهم وعندها وهكذا ..

أما القول بأنه لاينبغى تعليم النساء الكتابة ، وأنها مكروهة فى حقهن ارتكانا على النهى عن بعض ذلك فى بعض الآثار ، فينبغى ان يكون ذلك على عمومه ولا نظر الى قول من قال بأن من طبعهن المكر والدهاء والمداهنة ولا يعتمد على رأيهن لعدم كمال عقولهن ، فتعليم المرأة القراءة والكتابة ربما حملهن على الوسائل الغير مرضية ، وأن الله تعالى لو شاء أن يخلقهن كالرجال فى جودة العقل وصواب الرأى وحب الفضائل ، فكأن الله تعالى خلقهن لحفظ متاع البيت ، ووعاء لصون مادة النسل ، فمثل هذه الأقوال لاتفيد أن جميع النساء على هذه الصفات ولا تنطبق على جميع النساء ، وليس مرجع حرمان البنت من الكتابة الا التفانى فى الغيرة عليهن من ابراز محمود صفاتهن أيا ما كانت فى ميدان الرجال تبعا للعوائد المحلية المشوبة بحمية جاهلية ولو جرب خلاف هذه العادة لعمت التجربة .

ولا شك أن حصول النساء على ملكة القراءة والكتابة وعلى التخلق بالأخلاق الحميدة هو أجمل صفات الكمال ، وهو أشوق للرجال المستنيرين من الجمال فالأدب للمرأة يغنى عن الجمال ولكن الجمال لايغنى عن الأدب .. »

ولا شك كان لصيحة رفاعة الطهطاوى أثرها الذى امتد حتى جاء محمد عبده فدعا الى تعليم المرأة وحمل هذه الآراء قاسم أمين عام ١٨٩٩ فى كتابه تحرير المرأة فقال : ان تتعلم المرأة ما يلزمها لتربية أولادها على مبادىء الفضيلة والأدب وفهم ما يحيط بها من الأشياء ، بل ينبغى أن تستعد للاجابة على تلك الأسئلة الى ما لا نهاية لها مما اعتاده الأولاد الصغار ، وأن المرأة والرجال على على حد سواء فى الاحتياج الى الانتفاع بالعلم والتمتع بلذته ، ولا تحصل المرأة على المطلوب من هذه التربية العقلية بتعلمها القراءة

والكتابة واللغات الأجنبية بل تحتاج أيضا الى تعلم أصول العلوم الطبيعية والاجتماعية والتاريخية ·

وفى مجالس « جمال الدين الأفغانى » التى كان يعقدها فى مصر كان يوجه تلاميذه الى تحرير المرأة وتعليمها على نحو يتفق مع أسلوبه ، فقد كان يوجه أنظار تلاميذه نحو هذا الرأى أو ذاك بطريق غير مباشر ·

وقد روى « ابراهيم الهلباوى » أنه كان جالسا مع جمال الدين وكان معهما ابراهيم اللقانى وجماعة آخرون فى الجزيرة بين المزارع ، فمرت من بعد سيدة أجنبية راكبة جوادا ، فلما لمحها السيد خاطب اللقانى دون أن يلتفت الى ناحية السيدة فقال ما أحسن ماتتمنى يا لقانى ، فأجابه : أن تكون لى زوجة كهذه السيدة ·· فأبدى السيد علامة الاستحسان ·

وقد تردد مما سجل عن جمال الدين الأفغانى أنه كان يعتقد أن المرأة تتمتع بنفس التكوين العقلى للرجل ولا تعيقها الا نشأتها ·

وفى عام ١٨٩٠ ظهرت أول مجلة تحررها فتاة هى « مجلة الفتاة » لهند نوفل ثم مجلة فتاة الشرق للبيبة هاشم ·

وكانت هناك فتاة تخطب فى احتفال الثورة العرابية ذكرها عبد الله نديم هى « زينب ضيف » فى الاسكندرية ، كانت تقف فى محافل الرجال وتقول : هل يرضيكم أن يعيش نصفكم ويموت النصف الآخر ، ان العلم هو الحياة والجهل موت زؤام ، وأن المرأة المصرية لها فى أعناقكم حقوق ولها عندكم واجبات ، وهو أن تعلموها ، ومن العار أن تخلو بلادكم من مدارس البنات ·

وكان الشيخ عبد العزيز جاويش من دعاة تعليم المرأة فى الأزهر وله خطبة مشهورة فوق مسرح متروبول ·

ومن خلال هذا التاريخ الطويل ، تاريخ كفاح المرأة من أجل العلم ، ظهرت شيختان وهما الشيخة ستيتة الطبلاوية والشيخة فاطمة الأزهرية ولا نعرف شيئا عن تاريخهما سوى ما ذكر من أنهما علما السيدة عائشة التيمورية التى كانت تتلقى الآداب والعربية على الشيخ حسن الطويل ، وتتلقى العلوم اللغوية والشرعية على بعض النساء اللاتى حضرن فى الأزهر وذكرت اسم هاتين الشيختين ..

وذكر احمد لطفى السيد أنه حفظ القرآن فى كتاب الشيخة فاطمة فى قريته « برقين » .

***

أما الشيخة « فاطمة العوضية » التى نتحدث عنها فهى فاطمة أخرى غير الأزهرية التى علمت التيمورية ، أو فاطمة التى علمت لطفى السيد .. انها طنطاوية ، تعلمت فى الجامع الأحمدى بطنطا، وكانت تدرس على الشيخ الحفناوى ، وصفها زملاؤها بأنها كانت جيدة المنطق والفهم ، كثيرة النقاش والحوار ، صابرة على صعوبة الدرس ومشقة التحصيل ، وقد ثابرت على الدرس حتى تقدمت للشهادة العالمية الأزهرية .

وكانت لجنة الامتحان تطوف على المعاهد الملحقة بالأزهر لامتحان طلبة الشهادة فيها ، وكان ذلك عام ١٩١١ ، حيث فوجئت اللجنة بعد وصولها الى المسجد الأحمدى بالشيخة فاطمة من بين المتحنين ، ربما كانت هذه المفاجأة بعيدة الأثر فى أعضاء اللجنة ، ولعلهم قد عقدوا اجتماعا طويلا يدبرون أمرهم ازاء هذا الحدث الخطير .

« شيخة من الأزهر » تحمل العالمية .. وأين تذهب بعد ذلك .. وتقدمت الشيخة فاطمة العوضية الى اللجنة ثابتة الجنان، وكان موضوع درسها فى علم الأصول (لا تكليف الا بفعل) من

كتاب « جمع الجوامع » وهو باب عويص ثقيل فيه اشكالات وتعاقيد – على حد تعبير الشيخ محمود ابو العيون – وقليل من الطلبة النابهين من يفوز فيه ·

أما اللجنة فقد استقبلت الشيخة فاطمة بشيء من التجهم والعنف ، وأمطرتها وابلا من الأسئلة المعقدة ، وكان امتحان الأزهر يومها عنيفا وقاسيا وكان السبيل الى النجاح – كما يقول الشيخ أبو العيون – أن يكون الطالب ملما بما كتب فى الحواشى والتقارير ، وأن يكون قادرا على الجمع بين الآراء والخلافات وتصحيح المسائل المختلف عليها بلباقة وحصافة ، وأن يؤيد المذاهب الممتازة بالأدلة والبراهين الواردة عن العلماء المعروفين ·

والعبرة فى ذلك بعمق الفهم والقدرة على الترجيح لابكثرةالحفظ ونقل الأقوال والمسائل · ويرى الذين حضروا هذه المناقشة التاريخية أن من شروط النجاح فى الامتحان ليس حسن الأداء الذى يقوم به الطالب وانما يكون لغالبية الأعضاء فى الجنة الاتجاه نحو انجاح الطالب وتقديره ·· ولطالما لقى الطلاب عنتا وجهدا كبيرا وكثيرا ما أصابهم الاعياء والاغماء ·

وقد مضت السيدة فاطمة تجيب على الأسئلة العويصة التى كان كل واحد من أعضاء اللجنة يحاول أن يعجزها بها ويوقعها فى معضلات المسائل · ومن بين هذه الأسئلة : ما وجهه اليها الشيخ دسوقى العربى مغالطا (وكان هذا الشيخ حيا عام ١٩٣٤ م وقد حدث بذلك الشيخ أبو العيون ·

س : هل الاسم والحروف يكلف بهما كالفعل ؟

ج : ده بشأه · وده بشأه

(وبشأه كلمة تركية معناها نوع) وقالت ان الفعل هنا هو فعل المكلف المخاطب بالأحكام ، وهو غير الفعل قسيم الاسم والحرف ، فأعجب أعضاء اللجنة هذا الجواب الطريف ·

ولكن اتجاه اللجنة كان مصمما على عدم تخريج امرأة تحمل شهادة العالمية ، ومن أجل هذا ، وبعد أن طال احراجها ، أصابها الخور والضعف ، ولم تستطع اكمال الامتحان .

ورسبت الشيخة فاطمة .. ليس لنقص فى علمها ولكن للنية المبيتة فى عدم منحها « العالمية »

ولقد كان لرسوبها أثر عميق فى نفسها فلم تلبث أن توفيت ولكن اسمها ظل حيا .

يقول الشيخ أبو العيون : ولم يدر الا الله ماذا كان يكون لهـا من الحظ لو قدر لها النجاح .. أكانت تذر قوتها وتطالب بحقوق النساء فى الأزهر وفى القضاء الشرعى وفى التدريس .

نذكر هذا اليوم ، ونحن على وشك أن نستقبل بعد سنوات قليلة شيخة من الأزهر بعد افتتاح كلية البنات الاسلامية ، وكان الشيخ أبو العيون قد دعا سنة ١٩٣٤ الى تأسيس معاهد لتخريج فتيات صالحات .

* * *

تحرير المرأة

دعوة رفاعة الطهطاوى قبل قاسم أمين

يحسن بنا اليوم وحركة تحرير المرأة تبلـــغ مداها أن ننظر الى الخطوات الأولى لهذه النهضة ونواجه الدعوة التى انبثقت ذات يوم تحمل الى الشرق عادة حق المرأة الذى أقره لها الاســلام قبل ألف وأربعمـــائة عام حين حررها من أغلال الجهـــل والظلم والجمود وفتح أمامها الطريق المضىء الى حياة خصـــبة مشرقة ثم أصابها ما أصاب كل أمور العالم العربى من جمود وقيود حين دخلت هذه الأمة مرحلة الضعف بعد أن حملت لواء النهضة وشعلة الحضارة تسعة قرون ٠

ولقد ارتفعت أصوات كثيرة تدعو الى فتح الطريق من جديد للمرأة وقد كان رفاعة الطهطاوى من أوائل من حملوا هذا اللواء بعد عودته من الغرب سنة ١٨٤٠ وقد سبق البستانى والشدياق وان كانا هذين قد سجلاه قبله فى صحف مكتوبة

كما ســبق قاســم أمين فى دعوته الى تحرير المرأة « حمزة فتح الله » الذى ألقى بحثا ضافيا عن المرأة فى المؤتمر العلمى الشرقى فى مدينة استكهلم — سبتمبر ١٨٨٩ — وذلك قبل صدور كتـــاب قاسم أمين بعشر سنوات وقد أطلق عليه اسم « باكورة الكلام على حقوق النساء فى الاسلام » ٠

وقد أشار فى مقدمة بحثه أنه انما قصد الى هذا البحث « دفعا لما يتوهمه بعض جهال الأجانب من أن النساء فى شريعة الاســـلام كالســـوائم » ٠

وقد عرض حمزة فتح الله فى بحثه المفصل عن عظمة المرأة من فجر الاسلام وابان ازدهار حضارة الأمة العربية معددا من برزن منهن فى مجالات العلم والفكر ·

يقول « لطالما برع منهن كرائم أربية فى العلوم على ذوى العمائم وتواريخ الأمة عابقة بعبيرهن ذكرا زاهية بأخبارهن زهـــوا ، بل لقد خصهن بعض أئمتنا بالتأليف وبعضهم خصص به المحـــدثات منهن كصاحب « مسند النساء » وهو مجلد ضخم التزم فيه مؤلفه ذكر الأحاديث التى روتهـــا امرأة عن امرأة من غير أن يكون فى سندها رجل الى سيدنا رسول الله ·

أما نوابغهن فى الأدب والشعر والانشاء وسرعة البديهة فهو بلا ارتياب عديد التراث ، حدث الحافظ عن ابراهيم بن السنـــدى قال : كانت تصير الى « هاشمية » جارية حمـــدونة فى حاجات صاحبتها فأجمع نفسى لها وأطرد الخواطر عن فكرى وأحصر ذهنى جهدى خوفا من أن تورد على ما لا أفهمه لبعد غورها واقتدارهـــا على أن تجرى على لسانها ما فى قلبها ، كذلك ما يؤثر عن «خالصة» و « عتبة » جاريتى ريطة بنت أبى العباس ·

ومضى حمزة فتح الله يعدد النماذج من المتأخرين الى المتقـــدمين حتى بلغ عصر النبوة قال :

أما فى عهد النبوة فحدث عن البحر ولا حرج اذ كان النســـاء وقتئذ فضـــلا عن حفظهن القرآن الكريم أو ما تيسر منه يستنبطن الأحكام من الكتاب والسنة ، ولو درست أصول الشريعة المطهرة لعلمت أن لفظة الاستنباط وان خفت على اللسان فقد طاشت بها عقول أكبر العقلاء عند الموازنة بقسطاس الحـــق ، حتى عد ذلك الصحابى تلاوة من شذت عنها جزئية منه عدما بحتا ، حيث لعن الواصلات أى الذين يصلن شعرهن بشعر آخر يسميه عامة مصر الآن بالشعر العيرة » ·

ثم أورد نماذج من الفقيهات العالمات :

« كريمة » بنت محمد بن حاتم المروزية ، جاورت بمكة المكرمة وروت صحيح البخارى وروايتها من أصح روايات البخارى ·· وروت عن زاهر السرفسى ، وقال لقد وقفت على مجلد ينيف على الستين كراسة فى مناسك الحج على المذاهب الأربعة لمؤلفته العالمة السيدة « زينب » بنت فلان نزيل مكة المكرمة وهو بخط يدها فرغت من كتابته ، فيما أظن عن نيف وعشرين بعد المائتين والألف وقد طالعته فوجدته يدل على فضلها وغزارة علمها ، وجودة فهمها ·

وقال حمزة فتح الله ان كريمة المروزية كانت تضبط كتابها وتقابل بنسخها وهى فى الفهم والنباهة وحدة الذهن بحيث يرحل اليها أفاضل العلماء ·

وأشار الى « تقية » بنت أبى الفرج وقال ذكرها الحافظ السلفى فى تعليقه وأثنى عليها ، أخذت عنه العلم بثغر الاسكندرية وفاقت الرجال فيه ولها زيادة على ذلك الباع الأطول فى الشعر والأدب ولطائفها الأدبية مع الحافظ كثيرة ·

وأورد أحاديث كثيرة عن نابغات بلغ عددهن خمسة عشر منهن « العبادية » جارية المعتضد عباد والد المعتمد ، وكانت آية فى اللغة تطرح على علماء أشبيلية مشكلات فى اللغة فلا يجيب عنها سواها ، وقد استشهد بها ابن عليم فى شرح « أدب الكاتب » لابن قتيبة ، وفى كتاب حمزة فتح الله حديث طويل عن الزواج والوأد والتربية وتعدد الزوجات والتسرى والطلاق وحفظ الأنساب ·· وقد اعتذر عن عدم الافاضة لأنه اضطر لكتابته فى باريس فى طريقه الى المؤتمر لم تكن معه من المراجع ما يكفى للتوسع والتعمق ·

وقد ظهرت أول مجلة حررتها فتاة عام ١٨٩٠ وهى مجلة الفتاة » لهند نوفل ، ثم « فتاة الشرق » للبيبة هاشم ، وتوالت الصحف النسوية ·

ثم جاءت صيحة قاسم أمين عندما أصدر كتابه «تحرير المرأة» فى نهاية عام ١٨٩٩ وكان قد نشره مفصلا فى جريدة المؤيد فأثار ضجة كبرى وتعرض كاتبه لكثير من المتاعب ووجوه الاضطهاد .

ولم تمض سنوات حتى عمت الصيحة أنحاء العالم العربى فكتب جميل صدقى الزهاوى ، شاعر العراق ، مقالا عام ١٩١٠ عن تحرير المرأة وقد نشر هذا المقال فى صحيفة المؤيد المصرية ، فما أن وصلت الصحيفة الى بغداد حتى أحدثت ضجة لا حد لها ، وقامت المظاهرات بالهجوم على منزل الزهاوى ورجمته بالحجارة واضطر الوالى الى عزله من وظيفته ، وظيفة التدريس فى مدرسة الحقوق ، ولكن الزهاوى ظل مقيما على رأيه ونظم عددا من القصائد فى هذا المعنى ، ولقد كان لكتابات بطرس البستانى فى مجلة الجنان التى تصدر فى لبنان وفارس الشدياق فى مجلة « الجوائب » التى تصدر فى استانبول وتوزع فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، كان لهذا كله أثره فى خلق رأى عام بعيد المدى حقق نتائجه فى العشرينيات فى هذا القرن حيث اتسع نطاق التعليم ، وهو الأمر الأول الذى حرص عليه دعاة حرية المرأة وأولوه اهتمامهم الكبير .

وقد لخص قاسم أمين رأيه فى أربع قواعد رئيسية لهذه الحرية هى :

* رفع الحجاب الذى كان سائدا بصورة شاملة .

* تعليم المرأة حتى ترتفع الى المستوى اللائق بوظيفتها فى الحياة .

* لاتتزوج المرأة بلا ارادة ولا اختيار .

* تحريم تعدد الزوجات وتقييد حق الرجل فى الطلاق .

تلك هى صورة اليقظة فى فجرها ومطالعها .

زينب فواز

أول عربية كتبت فى صحف مصر

مهما أوتيت المرأة من حظ فى مجال حياتنا الفكرية فى مطالع النهضة فانهناك الكثيرات اللائى لم ينصفن ، ربما لمعت أسماؤهن فجأة ثم لم تلبث أن انطفأت بعد وفاتهن ، والسمت الغالب فى هذا المجال هو طابع الحزن والاحساس بالغبن والتطلع الى النهضة والتحرر ..

كان فجر النهضة فى السبعينيات من القرن الماضى قد اشرق عندما بدأت مسيرة جمال الدين الأفغانى الى المشرق العربى حيث أحس الرجل النابغة الذكى أن اليقظة تبدأ من مصر ، وأن الأمة الوسط هى التى ستحمل اللواء ، وأن قلب العالم الاسلامى هو أرض الكنانة ، وأنه اذا عز العرب عز الاسلام ، وأن الأزهر منار اللغة العربية والدين فى حاجة الى هزة وانتفاضة ، وان الله يبعث على رأس كل مائة عام مجددا وموقظا .

كذلك بدأ الرجل مسيرته الى مصر مرة ومرة ، وفى المرة الأخيرة أمضى سبع سنوات كاملة يفتح للشباب آفاقا الى النهضة، فاجتمع اليه الطامحون ، وبهرت أضواء فكره فى العالم العربى فقدم الى مصر من الشام كثيرون ، واتصل به كثيرون من بيروت ودمشق وبغداد ، من بين هؤلاء الطامحون تطلعت فتاة صغيرة ورفعت رأسها تحمل أمانة الكلمة وتحاول أن تقولها .

لم تكن هذه الفتاة هى أولاهن ، ولكنها وجـدت فى الصـف عائشة تيمور ، ووردة اليازجى ، ثم لحقتها هند نوفـل واسكندرة أفرينو ، ولبيبة هاشم ، ومن بعد ملك حفنى ناصف ٠

وتتميز « زينب فواز » انها لم تنصرف الى الشـعر كعائشة ووردة ، ولم تكن صاحبة صحيفة كهند واسكندرة ولبيبـة ٠٠ وانما كانت كاتبة منشئة فى الأغلب ، بارعة الأسلوب ، قادرة على الأداء على نحو يشهد بالتفوق ، بدأت تكتب عـام ١٨٩١ حتى قضت عام ١٩١٤ ويبدو أنهـا انقطعت عن الكتابة قبـل ذلك بخمس سنوات ، فانها فى رسـالتها الى العلامة أحمـد عارف الزين صاحب العرفان عام ١٩٠٩ تقول معتذرة عن الكتابة :

« كثر المرض العصبى ، وقد أتعبنى هذا المرض جدا حتى أننى فى ساعة تحرير هذا الجواب أتتنى النوبة مرتين ، وقد عطلتنى عن اتمام تأليف كتاب « مدارك الكمال فى تراجم الرجال » ٠

كان جمال الدين الأفغانى قد أعلن صـيحة الحرية للمرأة فى عبـارات قليلة موجزة تحدث بها الى « ابراهيم اللقانى » صفيـه وتلميذه الثانى حين أشار الى سيدة أجنبية تركب فرسـا وتمر بحدائق الجزيرة قائلا : ماذا تتمنى يالقانى ؟

ومنذ ذلك الوقت بدأت كلمة الحرية تعلو ، قبل أن يقولهـا قاسم أمين بسـنوات ، منذ عام ١٨٩٢ أخـذت تنشر « زينب فواز » رأيها فى جرأة وحرية ٠

وفتحت لها صحف مصر والعالم العربى أبوابها : النيـل ٠ اللواء ٠ رائد النيل ٠ المؤيد ٠ الأهالى ٠ أنيس الجليس ٠ مجلة الفتاة ٠ لسان الحال ٠ جريدة الشام ٠ فى خلال سبعة عشر عاما على الأقل ، كانت تكتب من بيتها ، ولكن فى جرأة وفى حيوية ، لم تتوقف عن الكتابة ثمة ، لم تدع حدثا ولا موقفا يتصل بحرية المرأة ونهضتها دون أن تبدى فيه الرأى المبنى على الدراسة والروية ،

كان الحق هو هدفها فى كتاباتها التى كانت فى الأغلب الأعم فى صحيفة النيل التى يصدرها « حسن حسنى الطويرانى » من أبرع كتاب مصر فى هذه الفترة، وكان هو الذى التفت اليها وكونها وأتاح لها الفرصة للعمل ، ولم تخرج أبحاثهـــا عن واجب الدفاع عن حقوق المرأة ووجوب تعليمها ، والنهى عن العوائد السيئـة وحضها على التقدم واكتساب المعارف ، وما يتعلق بفضائل اخـلاق النساء وما لهن من التأثير فى العالم الانسانى ، ليكون منهاجا قويما بين أفراد الجنس اللطيف يقتبس من نور مشكاته ويروون من عذب منهله ولذيذ عباراته ٠٠ « على النحو الذى عبرت به الصحـف فى تقدير هذا العمل الذى جمعه أحد المقدرين لعملها فى كتـــــاب « الرسائل الزينبية » ٠

ولم يكن هذا هو كل عملها فى مجال الدعوة التى وهبت نفسها لها ، فقد كتبت فى مطالع حياتها كتابا ضخما حاولنا أن نحصـل عليه فلم نجده فى دار الكتب المصرية هو « الدر المنثور فى طبقـات ربات الخدور » وهو عملها الأكبر فى الترجمة لشهيرات النســاء ، وقد كانت موضـــع تقدير كل من عرفهـــا وكتب عنها ، حيث قدمت فيـــه ترجمات لـ ٤٢٦ امرأة من نابغات النســاء بين عربية واعجمية ٠٠ بلغ عدد صفحاته ٥٥٢ ، وطبعته دار الطبـاعة بمطبعة بولاق بالقاهرة عام ١٣١٣ هـ ـ ١٨٩٥ م ، قالت عنه : « قدمت به جنسى اللطيف وانه لأكرم ما يهدى لغر الكرائم » وقد راجعت من أجله أربعين مؤلفا ، واذا كنا لا نستطيع أن نقـول فيه الرأى ، فلا أقل من أن نذكر أن مجلة المشرق احتفت به بعـد سنوات من وفاة « زينب فواز » حيث نقلت ترجمتهـا عن « جان دارك » قائلة تحت عنوان : « اكرام كاتبة مسلمة للقديسـة جان دارك » : « وجدنا فى هذه الترجمة ما يشهد لمؤلفتها بحسن الذوق والاعتدال فى الحكم مع رشاقة الأسلوب وسلاسة العبـارة ، وقد استهلت وصفها لجان دارك على هذا النحو :

« نقية البشرة ، مهفهفة القوام ، دعجـاء العينين ، ذات شعر فاحم مسترسل على كتفيها ، يلوح على محياها الصبيح سيمـاء الحياء واللطف والدعة وتبدو من مخايلها أمارات مضاء العزيمـة وبعد الهمة وثبات الجأش ، فطالما امتطت الفرس فتسابقت عليـه وهو غير مسرج ولا مشكوم جرأة وفروسية » .

* * *

ولزينب فواز قصص تعدها من أوائل كاتبات القصة العربية الحديثة .. هى « كورش ملك الفرس » و « الهـوى والوفاء » و « حسن العواقب أو غادة الزاهرة » التى نشرتها عـام ١٨٩٩ مطبعة هندية بالقاهرة وتقع حوادث هذه القصة فى لبنـان ، وهى مليئة بالمغامرات والمخاطرات بين الغابات والجبال .. ويرى محمد يوسف نجم أن الكلام فيها غلب على جانب الحركة التمثيلية وانها تأثرت بكتابات سليم البستانى ، وأن أسـلوبها فيها خليط من النثر البسيط والنثر المسجع ، أو مايسمى شعر النثر ، وانهـا عنيت بتصوير العواطف المتأججة » .

ولا شك أن هذا العمل المتعدد الجوانب فى ميدان الكتـابة الصحفية والتـأليف القصصى ونظم الشعر وكتابة التراجم .. بالاضافة الى كتابهـا الذى لم يكتمل عن تراجم الرجـال وهو ما أسمته « مدارك الكمال » والذى لا يعرف مصيره الآن ، كل هذا يشهد لزينب فواز بقوة العارضة والمكانة الحقة فى عالم الكتـابة ويدعو الى احياء ذكرها ومعاودة البحث فى آثارها ، فقد غبنتهـا الأيام وحالت دون أن تأخذ مكانها الى جوار من برزن فى هـذه الفترة ، ولعل ذلك راجع الى أنها توفيت فى ظل الحرب العالميـة الأولى ، حيث كانت الأهوال تحول دون البحث فى شـئون الأدب أو المرأة ، وقد كان حفيا بالذين قاموا بعد يدعون لتحرير المـرأة أن يذكروها ، فقد سبقت قاسم أمين ، فلما أظهرت آراؤه عـام ١٨٩٩ كان ذلك دافعا لها على الانطلاق والتوسع ، وقد اتسـمت

آراؤها بمظهرين واضحين هما : حرية الرأى والحكمة والاعتدال ، وكانت دعوتها الى ما أسمته « استنهاض المرأة الشرقية » واعيـا رشيدا ، تقول :

« قد خلقنا للجد والاجتهاد فى هذه الحياة لا للكسل والرقاد ، وبالحزم يرتفع شأن المرء بين أقرانه ويحمد بين عترته وخـلانه ، وبالمثابرة والمداومة على الأعمال ، وبواسطة الثبات والاقدام يبلغ الانسان المراد ويتسهل لديه كل عسير ، ويهون عليه كل صعب خطير ..

لا أثبت فى الأفكار ، ولا أشد تأثيرا فى النفـوس ولا أقوى زاجرا عن المنكرات ولا أقرب للتقوى من غرس القـواعد الدينية فى قلوب الأطفال فى مبادئهم .

طريق السعادة انما هو التخلق بالفضائل واجتنـاب الرذائل والترشح للكمالات القدسية .

ما من أمة انبعثت فيها أشعة التمدن فى أى زمان كان الا كان للنساء فيه اليد الطولى والفضل الأعظم .

لا حجاب بيننا وبين درس العلوم واكتساب المعارف .

ما من أمة فشا فيها داء الكسل وسرت اليها علة الخمـول الا دمرتها وهدمت أركان عزها ودكت حصون تمدنها » ا.هـ .

❊ ❊ ❊

ولطالما وجهت تساؤلات الى الأعـلام تكشف بهـا عن أمور وأمور ، فهى تقول :

« أيهما أشد تعبا فى الحياة الدنيا : الرجل بتعاطيه الأشـغال من تجارة وصناعة وسياسة وزراعة أم المرأة فى حملها ووضعهـا وتربيتها وتدبير منزلها ؟ »

ويرد عليها عبد الله نديم فى شعر جميل :

واعط أباك النصف حيا وميتـا
وفضل عليه من كرامتـه الاما
أقلك خفا اذا قتلك مثقـــلا
وأرضعت الحولين واحتملت تما

وهاجمت الكثير من العيوب الاجتماعية وفى مقدمتهـــا الزار ودعاته الذين ينتشرون « تحت جلباب التقوى متخذين كلمة التوحيد شعارا لاقتناص أموال عباد الله مستحوذين على عقول أولى السذاجة والبســـاطة . »

وهى لا تتناول هذه المسائل تناولا انشائيا ، بل تذهب الى حد المراجعات العلمية فى حدودها المحدودة اذ ذاك :

« يمكننى أن أجاوب عن الزمخشرى بأن الأطباء والحكمـــــاء والفزيولوجيين كما لا يسلمون بأن الصرع ناشىء عن مس الجن ، لا يسلمون أيضا بأن الصراخ ناشىء كذلك من مرض الجن ، يقولون انه ناتج عن تنبيه الجلد من تأثير الهواء الجوى فجأة فى بدن المولود وهذا كاف فى اثبات أن الجن لا تدخل بدن الانسان ولا تمســه ، وفقط الدخول والمس المستفادان من القرآن والحديث ليسا الا أمرين معنويين ينحصران فى الاغواء والوسوسة ، ومن ثم تكـون مســألة الزار التى هى عبارة عن زيارة الجن بدن الانســـان باطلة بطلانا دينيـــا » .

ولطالما دخلت فى مساجلات ومعارك مع الكتاب والكاتبات فهى تقول للكاتبة منا كورانى : لا نميل مع الهوى ولا نسير مع الغرض ولا ننطق الا بالحق ، وغايتنا المنفعـــة العامة لبنات جنســـنا ، والقصد منه خدمة العلم والأدب ، وهى خدمة نباهى بها مفتخرات ونجارى بها معتزات ولا تأخذنا فى الحق لومة لائم ، ولا نقـول الا بعد العلم والبحث فى الامور .. فماذا عن المرأة منا لو شمرت عن

ساعد الجد لتنشط النوع النسائى عوضا عن التعنيف والتبكيت، والتنكيت ، واذا قامت منا ذات غيرة ونشاط وحمية ـ تقصـــد نفسها ـ كتفنا يديها عن العمل وأوثقنا قدمى مساعيها عن المسير فى طريق النجاح » ٠

أما الكتاب فكانت تتناولهم بعنف وتقول فيهم شعر الهجـــاء ، ومن هؤلاء حسين فوزى الذى سخر من توقيعهـــا « حاملة لواء العدل » ومضى يردد كلمة « حاملة » فى مجال التهكم ، قالت فيه :

أولست اســـــــطاليس
ان ذكر الفلاســـفة الأكابر
وأبو حنيفـــة ســـــاقط
فى الـــرأى حين تكون حاضر
وكذلك ان ذكر الخليـــــل
فأنت نحـوى شـــــاعر

وكانت لها مساجلة واسعة المدى مع حسن حسنى الطويرانى الذى أسمته « فيلسوف العصر » وهو أستاذها الذى وجهها وفتح لها أبواب الكتابة فى صحيفته « النيل » وكان الحديث عن خوارق الطبيعة التى تسطو على جسم الانسان فتفترسه : وهى المـــرض والجوع والحب ، ثم تساءلت : ما هو السبب الذى جعل المصاب بالدائين : المرض والجوع يعذر ، أما الثـالث فانه يلام ، مع أن الحب هو الرابطة العظمى لكل أمر » اذ لولا العلائق بين الأفراد لما تألفت الممالك » ٠

وحاول الطويرانى أن يتحدث عن الحب الذى هـــو مشرب تتزاحم حوله الظنون لكثرة المتسترين بهذه الدعوى ، ولكن زينب فواز تذهب الى غاية المدى فتتحدث عن الحب الشريف ٠

ويكشف المقال عن عاطفة حبيسة فى مجتمع كان محجبا ومغلقا ٠٠ ولها شعر عاطفى جريح ، ولها شعر تناوله الطويرانى فحوله

الى رباعيات ومخمسات ٠٠ وشعرها قليل ، وهو من الشعر التقليدى ، تستعيد به ذكريات صباها فى قلعة تبنين ، فى جبل عامل :

يا أيها الصرح ان الدمع منهمل
فهل تعيد لنا يا دهر من رحلوا

وهل بقى فيك من ينعى معى فئة
هم المقاديم فى يوم الوغى الأول

قدكنت للدهر نورا يستضاء به
أخنى عليك البلى يا أيها الطلل

واهتمت زينب فواز بمراسلة العاملات فى مجال النهضة النسوية فى كل مكان واهتمت بالقسم النسائى فى معرض شيكاغو ، وأرسلت الى السيدة بارتا هونورى بالمر رئيسته كتابها « الدر المنثور فى تراجم ربات الخدور » ٠

وجرت بينهما مناقشة عن العوامل التى تمنعها من حضور المعرض وهل دينها الاسلام يحول دون ذلك ، وقالت زينب ان كشف الوجه ليس محرما وان منعته العادة المتوارثة ٠

وطالبت زينب فواز بوضع علامات للترقيم ، حتى يمكن فهم ما يكتب ، وذلك بوضع علامات الوقوف ، والاستغراب ، والاستفهام وغيرها ٠

وقادت المصريين للتبرع فى مجاعة الجزائر عام ١٨٩٢ وردت على مسيو هانوتو فى هجومه على الاسلام ، فضلا عن عشرات التعليقات والكتابات داعية الى تخليص المرأة التى « لم تزل تعيش فى تلك السراديب المعتمة فى بلادنا الشرقية ، ولطالما اعتمدت على تجربتها وخبرتها ، ووصفت زيارات لها ومقابلات ٠

وكانت الصحف تلقى كتاباتها بالتقدير ، وتقدم لها بعبارات الترحيب ، وربما وقعت بامضاء « درة الشرق » وأحيانا يلحقون باسمها عبارة « حفظ الله كمالها » .

عاشت زينب فواز (١٨٦٠ ــ ١٩١٤) أغلب حياتها فى مصر، اذ قدمتها فى مطلع شبابها ، وليس معقولا ان يكون ذلك فى سن العاشرة كما أوردته بعض المراجع ، اذ أنها كانت حين قدمت مصر قد تزوجت مرتين ، وربما كان قدومها فى حدود الثلاثين ، حيث تعرفت بدوائر العلم فى مصر واتصلت بكثير من الباحثين ، وكان لها منذ أول الصبا ذلك الطموح والتطلع الى حياة الأدب ، فقد نشأتها عائلة فقيرة واستخدمت فى دار على الأسعد ، وزوجت الى أحد خدمه ، وكفلتها السيدة فاطمة الخليل زوجة على الأسعد ، وكان لها الفضل فى اتجاهها نحو القراءة والاطلاع .. ثم انتقلت الى دمشق فتزوجت من كاتب كان معروفا اذ ذاك هو « أديب نظمى » ولكنها بدافع القلق والتطلع الى القاهرة ، كما تطلع اليها كثيرون من الطامحين فى الشام ، قدمت الاسكندرية حيث تعرفت بصاحب جريدة النيل « حسين حسنى الطويرانى » الذى وجهها وفتح لها أبواب جريدته ووجهها فى مجال البيان والعروض والتاريخ ، كما أفادت من الشيخ محيى الدين النبهانى فى الانشاء والنحو ، ولم يلبث اسمها أن ذاع فى خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر حتى قال يوسف حمدى يكن : انه فى أوائل سنة ١٩٠٠ لم يكن فى مصر غير عائشة تيمور وزينب فواز .

ويرى صاحب مجلة العرفان انها أول من كتب فى الصحف فى مصر من النساء ، ونعى الكثيرون على الباحثين أنهم أغضوا عن تكريم اسمها ، وأن جرجى باز ، نصير النساء الذى ترجم لـ « مريانا مراش » ترجمة حسنة لم يعن بها مع أنها كانت أهم وشهرتها أعم . وقد علق جرجى زيدان على بعض مؤلفاتها وقال :

ان اسمها سيبقى حيا ، وأجمع الكثيرون على أنها أول امرأة اشتهر اسمها فى عالم الأدب والكتابة فى الصحف ٠

ولم تجد الكاتبة التى تقول : « نظرت فى التاريخ العام فلم أر أحدا ألف تاريخا خاصا باللغة العربية يحتوى على ذكر شهيرات النساء وأدبهن وتقدمهن فى السنين الغابرة والحاضرة ، فعقدت العزم واستعملت الحزم وألفت كتابا فى هذا الباب » ، هذه الكاتبة لم تجد من يعنى بها غير اشارات قليلة اليها فى تراجم الأعلام « الزركلى » ومصادر الدراسة الأدبية « داغر » وأعلام النساء « كحالة » وغير مقالات فى مجلة العرفان ، كما أشار اليها مؤلف أعيان الشيعة عدا اشارات موجزة فى الهلال والمشرق وفتاة الشرق ، وغير هذا لم تكتب عنها دراسة مستفيضة ، وما زلنا ننظر الى الباحثين من أبناء جبل عامل وصيدا أن يتناولوا « زينب فواز » بدراسة علمية كبرى ، ونحن هنا فى مصر نذكر هذه الكاتبة التى كانت تفخر بأنها عاشت حياتها الحقيقية فى بلادنا ، ووجدت طريق عملها فى صحفنا ، ونقدر هذا العمل الذى قامت به فتاة مهاجرة لم تحصل على قدر كبير من التعليم والثقافة المدرسية ونأسف لأننا لم نجد لها صورة فوتغرافية ٠

* * *

شـــفيـقـــة

أول شهيدة فى ثورة ١٩١٩

كانت ثورة ١٩١٩ حدثا ضخما هز العالم الغربى ، ومن أسرار عظمته أن اشتركت فيه مختلف الطبقات والطوائف الطلاب والعمال والفلاحين ، والموظفين والتجار ، وكان اشتراك المـرأة فى ثورة ١٩١٩ أمرا بعيد المدى هز المشاعر وضاعف من المقاومة ..

وقد اشتركت المرأة فى ثورة ١٩١٩ مرتين ، ففى يـوم ١٦ مارس ١٩١٩ خرجت كرام العقائل فى حشـــمة ووقار ليعبرن عن مشاعرهن الوطنية نحو بلادهن ، يقول الشيخ عبد الوهاب النجار فى مذكراته التى كان يكتبها يوميا ، كمعاصر مشـــاهد لاحداث الثورة : « لقد ألفن موكبا فخما يتقدمه أربعة من طلبـة الأزهر أمسك كل واحد منهم بطرف العلم المصرى منبسط ، ووضـــع الصليب داخل الهلال موضع النجوم ، ولم يسبق لى ولا لأحد أن رأى مثل ذلك من قبل اليوم » .

وسارت السيدات فى صفين على جانبى الطريق تتوســطهن واحدة منهن حاملة علما أبيض علامة للسلام ، وفيه الهلال بلون أحمر ، وبلغ عدد السيدات المنضمات فى صفين ٣٢٠ سيدة .. سرن صفا واحدا بعرض الطريق .. وفى ايديهن عرائض ..

وطافت السيدات فى موكبهن أهم شوارع القاهرة ، وقصدن الى الوكالات السياسية وسراى عابدين ، حاملة العلم بينهن تهتف لاستقلال مصر وسقوط الحماية الانجليزية والظلم ، وسرن الى منزل زغلول باشا فحال الجنود الانجليز بينهن وبين الوصـــول اليه وصوبوا البنادق الى صدورهن فتقدمت حاملة العلم الى الضابط الانجليزى القابضة يده على المسدس وقالت وهى تكشف صدرهـا بيدها اليسرى :

« هذا صدرى فهات ماعندك ، نحن لانهاب الموت » ..

وظلت واقفة مكانها والضابط أمامها برهة رهيبـــة ، انثنى بعدها خجلا ، خافضا سلاحه هاتفـا لعســـاكره : « أفســـحوا الطريق » ..

ولم تلبث السيدات أن قمن بمظاهرة بعد أربعة أيام ، وهى مظاهرة ٢٠ مارس ١٩١٩ ، وكانت جموع من السيدات قد ذهبت فى اليوم السابق الى القيادة العامة وقابلن الضابط المختص لطلب الاذن لقيام مظاهرة لايشترك فيها غيرهن . وقد نصحهن محـافظ مصر بالعدول عن التظاهر ، غير أن السيدات المصريات صـــممن على القيام بالمظاهرة بالرغم من علمهن بنفور السلطات الانجليزية من ذلك .

وفى الساعة العاشرة من صباح ٢٠ مارس اجتمعن من كل أوب ـ ونحن هنا ننقل ملخص ما أورده الشيخ عبد الوهاب النجار فى مذكراته الخاصة ـ وهن ممتطيات السيارات والعــربات ، ومشين بها الى أن وصلن الى الحديقة التى تقع قرب نهر النيـــل بموضع « القصر العالى » فى جاردن سيتى ..

ولما جاء الموعد المقرر .. سرن ماشيات على الاقــدام ، وفى مقدمتهن ستة أعلام كلها باللون الاسود وقد كتب عليهـا باللغـة العربية وبالخط الجلى بالقماش الابيض « اننا نحتج على سفك دماء

الأبرياء العزل من السلاح » وترجمة له باللغة الفرنسية ... وكل علم تحمله سيدتان ، وقد أعددن أوراق احتجاج لتقدم واحدة منها الى كل قنصل من قناصل الدول اذا مررن بدورها ..

وكان سير المظاهرات – ومركباتهن خلفهن – من شارع قصر العينى ثم شارع ناظر الجيش بالانشاء ، وقد واصلن سيرهن بنظام تام حتى وصلن الى شارع سعد زغلول ووقفن أمام بيتــه هاتفات والناس من حولهن ..

وبينما هن على هذه الحـــال أقبلت قوة كبيرة من البوليس المصرى مشاة وركبانا وتلتها قوة من الجند الانجليز ، وصلت فى السيارات وهى مسلحة بالبنادق ومعها سيارات وضعت فيها المدافع الرشاشة « المترليوز » .

وفى الحال ضرب على السيدات المتظاهرات نطاق من جنـــد البوليس المصرى وخلفه نطاق آخر من الجند الانجليزى . وبذلك حصرت السيدات حصرا محكما تاما ومنعن من السير الى منازلهن أو السير فيما كن بسبيله ، ومن الدخول أيضا الى المنازل المجاورة ، وظللن واقفات فى الشمس من الساعة العاشرة والنصف صباحا الى الساعة الواحدة بعد الظهر .

وفى هذه الأثناء وصل بعض السيدات والاوانس من الطالبات ، وقصدن الى سفارات الدول واحتججن لدى قنصلى ايطاليا وفرنسا ، ثم قصد الجميع الى دار قنصل أمريكا وشـــكون فعل الســـلطة الانجليزية بالسيدات المصريات . فصدر الامر على عجل لتمكينهن من الذهاب الى بيوتهن ، يقول الشيخ الخضرى :

« وقد شاهدت كثيرات منهن بعينى رأسى عند الانصراف » ..

وقد حيا حافظ ابراهيم مظاهرة السيدات فى قصيدة رائعة :

خــرج الغـــواني يحتججن
ورحت أرقب جمعهنـــــــــه

فاذا بهن تخـــذن من ســـ
ــود الثيــاب شعـــارهنه

فطلعن مثـــل كواكب يسطـ
ـعن في وســـط الدجنه

وأخذن يجتـــزن الطـــريق
ودار (سعد) قصـــدهنه

يمشــين في كنف الوقـــا
ر وقــد أبن شـــعورهنه

واذا بجيش مقبــــــل
والخيل مطلقــة الأعنــة

واذا الجيـــوش ســـيو
فها قد صوبت لنحـــورهن

وفى مراجعة لكتاب الأستاذ الجليل عبد الرحمن الرافعى لم نستطع أن نصل الى أكثر من هذه المعلومات عن مظاهرتى يومى ١٦ و ٢٠ مارس ١٩١٩ ، وكنا نحب أن نعرف اسم الفتــاة الشجاعة التى فتحت صدرها لرصاص الجنود الانجليز ٠

غير أن التاريخ أراد أن يجعل للمرأة فى ثورة ١٩١٩ دم غال عزيز ، وذلك باستشهاد « شفيقة » فتاة الخليفة والقلعة ، معقل حركة مصطفى كامل ومسقط رأسه ٠٠ فهذه هى الفتـــاة الوحيدة التى حفظ التاريخ اسمها من شهيدات الثورة ٠٠

لم تكن « شفيقة » ابنة المعلم عشماوى مصطفى المقاول تتجاوز سن الثامنة عشر اذ ذاك ، عندما أتيح لها ان تشترك فىمظاهرات الاحياء ولعلها علمت بمظاهرة السيدات التى لم يتح لها أن تشترك

فيها فأرادت أن تسجل عملا أكبر وأعظم عندما قادت تلك المظاهرة في ميدان القلعة وحملت العلم وهتفت بحياة مصر ..

وفى هذه المرة كان الجندى البريطانى نذلا ومجرما .. عندما انتهز فرصة الزحام وصوب فوهة بندقيته الى صدر هذه الفتاة الوطنية الشجاعة ..

كانت شفيقة أكبر أخوتها عندما توفيت والدتها وهى على وشك الانتهاء من الدراسة الابتدائية ، وحملت مشقة رعاية اخوتهـــا وأخواتها .. ومسئولية بيت والدها ،فقد أسلمها الوالد المقاول ــ كثير الأعمال ــ زمام البيت ، ووكل اليها مسئولية اعدادمطالبه، فكانت تستيقظ مبكرة لتقضى يوما طويلا شاقا الى وقت متأخــر من المساء فى رعاية امور اخوتها ووالدها .

فلما حصلت على الابتدائية اضطرت أن تنقطع عن الدراسة تحت ضغط المسئولية الجديدة ، ولكنها لم تكن خاملة ، بل كانت طلعة حية النفس والعاطفة ، فمنذ سنوات قليلة كان اسم مصطفى كامل يدوى فى منطقتى القلعة والخليفة ، وكانتا تفخران بابنهما البــار الذى نشأ فى حارة المبيضة بشارع شيخون ، وهنا كان مجـــال تحركاته وخطبـــه وذهابه ورواحه .. وأهـــل الحى يفخرون به ويقرءون فى الصحف خطبه يتابعون جهـاده ، فلما مضى ظل حى الخليفة مؤمنا بالدعوة الوطنية يتابع خليفته محمـــد فريد ويوالى العمل ..

كانت « شفيقة » تعيش فى هذا الجو ، وتشم هذه الريح العطرة من الكفاح والتطلع الى الحرية ، كان والدها يقبل فى آخر اليوم من عمله الشاق ومعه الصحف اللواء أو العلم أو الأخبار .. ليقرأ مقالات مصطفى كامل ومحمد فريد وعبـد العزيز جاويش وأمين الرافعى وعشرات من كتاب الوطنية ، فلما انتهت الحرب ، وبدأ فى الجو قيام الوفد المصرى ، اشترك الحزب الوطنى بأكثر من ممثـــل

مضى الشيخ عشماوى وجيرانه وابنته فى نفس الطريق ، فلما نفى سعد زغلول ، اهتزت مصر كلها واندلعت الثورة ومضى يغذيها عملاقها عبد الرحمن فهمى ..

وكان لحى الخليفة دور كبير فى هذه الحركة ..

كان على كل حى أن ينظم مظاهرة يوما .. فتخرج الألوف تحمل الأعلام وتتلقى الرصاص وتستشهد من أجل حرية مصر ..

وكان المعلم عشماوى فى مقدمة من يقدمون مالهم ونفوذهم من أجل نجاح الثورة .. وكانت ابنته « شفيقة » كأبيها ، صادقة الإباء فلا عجب أن رؤيت مرات تخرج فى لباسها الوطنى لتخطب فى أهل الحى وتحرضهم على مقاومة الانجليز ، وكانت خطيبة مثيرة ، فقد كانت كلمات الحزب الوطنى التى طالما قرأتها لوالدها تملأ نفسها وتستطيع أن تستعملها على نحو يهز النفوس ..

ومضت شفيقة تنظم الدعوة وتحرض الاهالى للقيام بالواجب ، وقامت ببث سيدات أخريات من جيرانها وأخوتها الصغار فى جنح الليل الى بيوت من اعتقلن لشىء من زاد أو مال وموالاة هذه البيوت وبينما هى ترتب هذا بالليل تخرج فى صحوة النهار لتشارك فى المظاهرة وتحمل اللواء .

.. أما ذلك اليوم المشهود فقد كان حى الخليفة قد حشد كل شبابه ليعلن عن موقفه على نحو ضخم مثير ، كان هناك فى هذه الصفوف كثيرون ، كامل كيلانى مؤلف قصص الأطفال من بعد ، وسيد ابراهيم أبرع كتاب الخط العربى ، وزكى مبارك صديقهم . وكانت من وراء الحركة « شفيقة » يحفرون الخنادق ويقيمون المتاريس ..

كانت تعشى اخوتها لتخرج مع ثلة من الفتيات المجاهدات فى حى الخليفة لتوصيل المئونة للبيوت والاسلحة للمجاهدين تحت

جنح الظلام ، وكان الجنود البريطانيون يعرفون مدى صـــداقـة هذه الفتاة وايمانها وكفاحها ٠٠

ففى ذلك اليوم كانت المظاهرة ضخمة ممتدة ، وكانت شفيقة تحمل أحد الأعلام ، تهتف وتلوح بيدها ٠

وهناك فى المنحنى ٠٠٠ كانوا ينتظرونها ببنادقهم ، وكانت الاصـــابة ضخمة ، عديد من الرصاص ، فأصابوا صـــدرها ٠٠ وسقطت ٠٠٠ وحملوها الى البيت جثة هامدة ٠

وجاء والدها فلم يبكها ٠٠٠ ولكنه كان ســـعيدا لان ابنته الشابة العذراء قد استشهدت فى سبيل مبادىء مصطفى كامل ٠٠ ابن حى الخليفة ٠

وليس قليلا على الخليفة ان تقدم الشهيدة لثورة ١٩١٩ المرأة المصرية الاولى : شفيقة ٠

لقد فات شفيقة أن تحضر مظاهرة السيدات ولكن لم يفتهـــا شرف الفداء والتضحية والاستشهاد ٠٠ لله خالصا ٠

***

نبوية موسى

رائدة فى ميدان تحرر المرأة

تمثل حياة الكاتبة المربية « نبوية موسى » قصة جهاد مشرق نبيل ، وهى نموذج لجهاد المرأة فى فجر النهضة من أجل تحقيق أملها فى الحصول على ضياء العلم والحرية والعمل ، وكذلك ترسم صورة الظلام الذى شقت طريقها فيه نحو النور ، وما احتملت من آلام ومتاعب وهى تدفع عنها عوادى الشر لترفع صوتها وتعلن آراءها فى صراحة وجرأة • وقد استطاعت أن تحقق ذلك وتفتح الطريق الى الهدف الكبير : العلم والحرية والعمل مع عدد قليل من الأتراب اللائى آمن بما دعت اليه •

فى قرية صغيرة من قرى مديرية القليوبية ، تفتحت الفتاة اليتيمة الى الحياة كان والدها الضابط المصرى بالسودان قد لقى مصرعه هناك فى معارك فتح السودان فلم تره ، وفى القاهرة كانت تجلس الى شقيقها الذى يكبرها بعشر سنوات لتسمع مايقرأ من القصص • وفى سن السادسة كان شقيقها يقرأ لها فى كتب الأدب القديمة كالأغانى وغيره ••• وكان اذا حاول حفظ قصيدة حفظتها معه ، كنت كثيرا ماأحفظ القصيدة بمجرد استماعى له وهو يقرؤها، وبذلك استطعت ان اتذوق الادب العربى قبل ان أعرف الالف من الباء ولم تلبث أن توسلت اليه أن يعلمها مبادىء القراءة ففعل ولم اكد اتعلم الحروف الهجائية وحركاتها حتى بدأت اعالج

القراءة بنفسى ،ومضت تقرأ كتاب مجانى الأدب ، وقصة حسن الصائغ البصرى ، وقصة عنتر بن شداد وظلت تواصل الليل بالنهار فى القراءة . ثم مالت بعد هذا الى الكتابة محاكية ماقرأته .

وقرأت أشعار عمر بن أبى ربيعة ، وأبى نواس ، ومجنون ليلى وغيرهم ، وديوان عائشة التيمورية . ثم لم تلبث أن نظمت شعرا ساذجا وتطلعت وهى فى هذا السن وفى البيت ـ فلم تكن قد ذهبت بعد الى المدرسة ـ الى الالتفات للتعليم . فمضت تحفظ القرآن .

تقول : ثم مرضت وعز على والدتى الامر وهالها مرضى لانى أولا ابنتها الوحيدة وثانيا لانها ستفقد بفقدى المعاش المقرر لى ، لهذا هلعت كل الهلع ، وأشار عليها بعض صديقاتها بأن تعمل لى حفلة زار فصممت على ذلك وكانت قد باعت منزلا صغيرا لنا فلم تبخل على بالمبلغ واستعدت لعمل حفلة الزار ، وقد اشترت لى قرطا ذهبيا تشبثت بشرائه وسررت سرورا عظيما اعاد الى صحتى وقامت شيخة الزار باعداد الكرسى ووضعت عليه صينية ملئت برؤوس السكر والمكسرات وزبادى اللبن وغير ذلك من المأكولات . وحذرنى أخى من ان اعمل ما تعمله السيدات من ذلك الرقص المستهجن فلم أفعل » وقالت أنها لم تنخدع بهذه الخدعة ، تقول وكانت والدتى بعد هذا اذا مرضت الحت على فى أن أعمل الزار وهى تجهل اننى شفيت من تأثير السرور بما اشترت لى من الحلى وبعد أن كبرت كنت لا أسر بتلك السخافات .

وعولت « نبوية » على أن تتعلم تعليما كاملا فى المدرسة السنية وعرفت مقررات الدراسة فطلبت من والدتى أن تعين لى معلما فاستشارت عمها فقال لها « علموهن الغزل ولا تعلموهن الخط » تقول : ورفضت والدتى أن تعين لى معلما ورفضت أن تعلمنى الغزل .

غير ان ذلك لم يثنها عن عزمها فاشترت الكتب وتغلبت على صعوبات القواعد الاصلية للاعداد الصحيحة والكسور الاعتيادية . ثم تعلمت ألف باء اللغة الانجليزية .

تقول : وأخيرا عولت على أن ألتحق بالمدرسة السنية ، ولما كاشفت والدتى برغبتى قامت لذاك وقعدت واعتبرته خروجا على قواعد الأدب والحياء ومروقا من التربية والدين . وأخذت تقص الحكاية على أقاربها كأنها أحدوثة . كان يساعدها على ذلك كل من سمع بتلك الرغبة الجامحة فصممت على الرفض . وصممت على تنفيذ رغبتى مهما بلغ الأمر » .

واستعانت بالحيلة وأخفت الرغبة مؤقتا وعملت على الالتحاق دون أن تخبرها فسرقت خاتم والدتها وذهبت الى المدرسة السنية وكتبت استمارة التحاق « ولا أنكر أن خطى فى تلك الاستمارة كان مضطربا رديئا لأنى لم أعتد الكتابة ولم أحسن امساك القلم . وعجب سكرتير المدرسة السنية والمعلمون من جرأة تلك الفتاةالتى جاءت لتقدم لنفسها ، ولكى أحملهم على قبول طلبى جعلته بمصروفات . وكان أغلب طالبات السنية يتعلمن بالمجان لعدم اقبال الأهالى اذ ذاك على تعليم البنات »

وتصور تجربة الامتحان فتقول : ماكان أشده وأقساه على فتاة فى سن ثلاثة عشر عاما ، لم تر نظام المدارس ولم تحسن امساك القلم ، فكان القلم يلعب بى بدلا من أن العب انا به . فكم لوثت ورقة وكسرت قلما فى ذلك الامتحان ، فكان فى ورقتى كلاما عربيا باهرا وخطا لايختلف كثيرا عن خطوط الأطفال . وقد تعجب المعلمون من رداءة الخط وجودة الانشاء » .

ودخل الشيخ التونى القاعة لينظر كيف تجيب على أسئلة الحساب .. تقول :

« وكنت وحدى فى الغرفة لأنه لم يتقدم الى امتحان الســـنة الثالثة سواى ، وألقى نظرة على الورقة فدهش اذ كان حلى للمسائل الثلاث صحيحا فقال باسما : لقد كان الامتحان سهلا ، قلت : نعم ، ولكنى أطلب المساعدة فى عملية الضرب هذه فدهش الاستاذ وقال الخبر ايه ، هل أنت من الفلاسفة ؟ قلت كلا · ولــكنى لم أحفظ جدول الضرب فضحك الاستاذ وقال يكفيك ثلاث مسائل » ·

وكان وقع الحادث على الأم عنيفا عندما علمت بأن ابنتها قبلت بالمدرسة السنية وقالت موجهة الخطاب الى ابنتها : اذا فعلت فلا علاقة لى بك · قلت : لقد فعلت ولا شك فى ذلك وأنا ذاهبة لامحالة فان تشبثت بالرفض وعدم القبول فسأدخل المدرسة داخلية وفى معاشى مايقوم بذلك ·

وقال لها شقيقها : تأكدى أنك ان دخلت السنية فلن أعرفك فابتسمت وقالت : لقد نقص اذن من أقربائى واحد ولا ضير فى ذلك ·

قالت : وفى يوم السبت ذهبت الى « السنية » وكان خجل وكان حياء وكان اضطراب لحالة جديدة لم آلفها ، فقد كنت قبل ذلك فى المنزل فلم أر من الرجال الا أخى ، أما اليوم فقد رأيت كثيرا من المعلمين والخدم »

وهكذا بدأت هذه التجربة المثيرة فى صراعها مع الأهل من أجل « التعليم » وذكرت نبوية موسى أنها اجتازت الامتحانات عاما بعد عام بمجهود كبير حتى كانت السنة النهائية ، فطلبت اليها والدتها بعد الامتحان أن تسأل احدى المنجمات عن هذا الأمر تقول : وكانت والدتى شديدة الثقة فى منجمة تدعى الشيخة رمانة ، وكانت تقول ان كلامها لاينزل الأرض ، فأردت أن أشرح لوالدتى بطريقة عملية أن هذه المنجمة لاتستطيع معرفة الماضى لا المســـتقبل · فطلبت أن أذهب معها الى تلك المنجمة · فغيرت ملابسى ولبست ملاءة وبرقعا

أسودا ـ كان حولها عدد كبير من النســاء يغلب على ظنى أنهن يساعدنها على كشف مستقبل الزبائن وان كن يتظـاهرن بأنهن جميعا زائرات ، وجلست على مقربة من الشيخة وتقدمت منهـا امرأتان وأعطت احداهما للشيخة منديلها لتكشف عن مستقبلها فقالت لها فى لهجة الطفلة العابثة المترددة « مش واوه » وهى جملة ترسلها بين التأكيد والاستفهام • فقالت الزائرة « لاياسيدتى مش واوه » فقالت الشيخة : أنا أقول مش واوه » قالت ذلك بلهجـة التأكيد • ثم قالت بلهجتها الأولى « مش حاجة ضـايعة » فقـالت الزائرة : نعم ياسيدتى شىء مسروق. قالت الشيخة « انا اقول حاجة ضايعة » ثم عادت الى ترددها تقول « مش ذهب » فقالت الزائرة : ياليتها كانت ذهبا ، ومعلوم أن الماس أغلى من الذهب ولهذا قالت الشيخة بلهجة التأكيد « أنا أقول ألماظه » فنظرت المرأة الى زميلتها وقالت فى سذاجة لقد عرفت الشىء المسروق ، وتشجعت المنجمة وقالت : سرقها شخص يأكل معك وبالطبع لايخلو الحال من أن يكون مع كل سيدة بعض أشخاص يأكلون معها ، اما من الخدم أو من الأقارب ، ولكن المرأة لسذاجتها تأكدت أن الشيخة قد عرفت ذلك بعلمها ، فقالت لزميلتها بصوت مسموع لا يأكل معى الا نفيسه ، وزادت جرأة الشيخة فقالت : ان نفيسة هى السارقة ، فتركت المكان وهى تعتقد أن المنجمة قد عرفت كل شىء حتى اسم السارقة ونسيت أنها هى التى ذكرت اسم « نفيسة » بصـوت سمعته المنجمة كما سمعته أنا ، وقد كنت أكثر بعدا عن المنجمة وهنا علمت كيف تعمل السذاجة والجهل لصالح هؤلاء المنجمات »

وكانت هذه تجربتها مع الجهل وأكاذيب المجتمع فى أوائل القرن •

واستطاعت نبوية أن تنجح بدرجة امتياز ، فقد كانت الأولى « يونية ١٩٠٣ » فى الشهادة الابتدائية ، تقول : « ولم ينجح فى البلاد المصرية كلها غيرى فى ذلك العام الا ثلاث فتيات وأنا رابعتهن:

تلميذتان فى المدرسة السنية واثنتان فى مدرسة عباس وقداستقبل أهل الريف هذا النجاح بتقدير كبير تقول : « كنت فى القرية عندما ظهرت نتيجة الابتدائية فتوافد الناس على دارنا أفواجا للتهنئـــة ولاظهار اعجابهم بذلك النبوغ النادر كما كانوا يسمونه .

وقد رسمت نبوية موسى فى بعض مذكراتها صورة العصر فى هذه الفترة قالت : « دخلت المدرسة السنية فى السنة الثـــالثة الابتدائية ، وكان ذلك عام ١٩٠٣ ، وكانت المرحومة ملكة حفنى ناصف فى السنة الثانية من معلمات السنية أى كان بينى وبينها فرق دراسة ثلاث سنوات وكانت مشهورة بجودة الانشاء فى اللغة العربية وهى موهبة ورثتها عن والدهاحفنى بك ناصف ، فلما دخلت أنا اتجهت أنظار المعلمين الى الموازنة بينى وبينها ، وجرت المقارنات بين موضوعينا فى الانشاء ، وقال البعض ان الموضوعين متساويان فى الجودة وأغضب ذلك ملكة وكانت طيبة القلب ، وقد نمت بينى وبينها صداقة ، فكانت تميل الى مجالستى بعد هذه الموازنة ،وطلبت منى أن أكتب قصيدة فى مدح الخديو وأن تكتب هى الأخرى ، وأن تعرض القصيدتين على والدها ففعلت وفعلت ثم جاءتنى بعد ذلك وعلى وجهها علامة عدم الرضا وقالت : لقد انضم والدى الى رأيهم ٠ ثم فوجئت بقصيدتها منشورة على صفحات المؤيد وأعجبنى بيت فيها أيما اعجاب فذكرته لها فقالت لمن هذا ؟ قلت عجبا ألا تعرفين ٠ قالت : لا ٠ قلت : انه من قصيدتكالمنشورة اليوم فى المؤيد قالت: لعل والدى وضعه ومن هذا علمت أن حفنى ناصف كان يساعدها فيما تكتب » ٠

وهكذا استطاعت نبوية موسى أن تشق طريقها الى العلم ، وأن تظفر بدبلوم المعلمات ، وكانت من أوليات المتخصصات فى شئون التعليم ٠ وقد بدأت هذه النهضة فى يونيه عام ١٩٠١ عندما أحرزت ثلاث تلميذات « الشهادة الابتدائية » وهن ، ملكة حفنى ناصف ، وفكتوريا عوض ، والجر بلنتر ٠ ثم دخلن قسم المعلمات فى السنية

حيث أحرزن دبلوم معلمات السنية لأول مرة : « يونيه ١٩٠٣ » ملكة حفنى ناصف وفيكتوريا عوض اللتان عينتا معلمات بالمدرسة على أثر ذلك ٠

وفى عام ١٩٠٣ كان بالمعلمات ١٤ طالبة ٠ ومن هذه الأسماء : آسيا عبد الفتاح وتوحيدة صبحى وعائشة الشيمى وفاطمة عمر « شقيقة عبد العزيز فهمى » ونور الهدى عبد الله وزينب بهجت وزينب فؤاد وهانم صالح وعائشة صبحى وبهية حسونة ونور حسن وأديل دياب ونبويه موسى ٠

وقد عاشت « نبوية موسى » حياة كفاح طويل فى سبيل العلم والحرية ٠ تتلخص حياتها فى أنها ولدت ١٨٨٦ بالزقازيق والدها اليوزباشى موسى محمد ، وتعلمت القراءة والكتابة بجهدها الشخصى ، وتقدمت فى ١٥ يونيو ١٩٠٠ لأول مرة مع أربعة عشرة فتاة لامتحان الشهادة الابتدائية وأحرزتها عام ١٩٠٣ ، فى نفس العام الذى نجح فيه عباس محمود العقاد ومحمود فهمى النقراشى ، وفى عام ١٩٠٦ أحرزت دبلوم المعلمات فعينت مدرسة بمدرسة عباس بمرتب ستة جنيهات واتجهت الى دخول امتحان البكالوريا لتتساوى مع خريجى المعلمين الخديوية وأحدثت ضجة كبرى فى اجراءاتها حتى أن « دنلوب » مستشار وزارة « المعارف » اذ ذاك لم يستطع أن يثنيها عن عزمها ، وكانت الطالبة الوحيدة التى تقدمت للبكالوريا ٠

وتدافع الناس الى المدرسة السنية لمشاهدة الفتاة وهى تجلس بمفردها تؤدى الامتحان ولم تتقدم فتاة لهذا الامتحان الا بعد ٢١ سنة ، وظلت نبوية موسى تعمل وتشق حجب الظلام مدرسة وناظرة ومفتشة ثم أنشأت مدرسة « بنات الاشراف التى كان لها اسم لامع وتاريخ طيب حتى توفيت فى مايو ١٩٥١ ٠

الفهـــــــرس

تابع الفهرس

مؤسسة
دار التحرير للطبع والنشر
(مطابع شركة الاعلانات الشرقية)